حقيقة الموت
بين الفلسفة والدين

دكتور
محمد عبد الرحيم الزينى
أستاذ الفلسفة الإسلامية
معهد العلوم الشرعية
مسقط - سلطنة عمان

دار التقوى
للنشر والتوزيع

حقيقة الموت
بين
الفلسفة والدين

دكتور/ محمد عبد الرحيم الزيني
أستاذ الفلسفة الإسلامية
المعهد العالي لأصول الدين – جامعة الجزائر
كلية التربية حجة – جامعة صنعاء
معهد العلوم الشرعية - مسقط.



الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

رقم الإيداع:

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

دار اليقين للنشر والتوزيع - مصر - المنصورة
شارع عبد السلام عارف الكردون الخارجي لسوق الجملة
بجوار معارض الشريف ص.ب: ٤٥٦ - المنصورة ٣٥٥١١
هاتف: ٠٥٠٢٢٥٥٢٤١ - جوال: ٠١٠١٥٧٥٨٥٢
البريد الإلكتروني: elyakeen@hotmail.com
المكتبة: مساكن الشناوي - سور مسجد التوحيد - هاتف ٠٥٠٢٢١١٠٠٢



الإهداء

إلى روح صديقي، ورفيق، وشقيقي

الشاب المهندس/ أحمد عبد الرحيم الزيني

وهي في الملكوت الأعلى سابحة في نور الواحد القهار.

الذي سافر إلى الله مهرولاً

متشوقا مرددا مع كليم الله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ فاستقبلته الملائكة بأجنحتها المتلألئة، وهي تسبح في فيض العالم النوراني، مرحبة مستبشرة هاتفة به ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾

محمد الزيني



دعــاء

اللهم أنت بنا أبصر، ونحن عن مصالحنا أقصر!

فرقنا بكرمك إلى حظيرة القدس، واسقنا بكأس القبول شراب الأنس،

فإنك إن فعلت ذلك بنا لم نظمأ بعده أبداً، ولم نؤثر عليك أحداً.

آه على أقدام كانت تستثقل حمل رقيق النعال،

كيف تطيق غداً هول ثقل القيود والأنكال!.

آه على جنوب كانت تستخشن لين الحرير،

كيف تصبر غداً على مقاساة لهب السعير!

آه على خدود في ظلال الطرف تدلل ناعمة كيف

تكون غداً في أطباق الثرى ساهمة راغمة!

آه على أجساد في حلل الدنيا مصونة،

إذا أصبحت غداً في أثناء الجنادل مهينة مدفونة!

اللهم إنا حضرناك دنسين فطهرنا،

وسألناك محتاجين فأجبنا، ولذنا بك عاجزين فقونا،

واعترفنا بحكمتك فأقبلنا، وخضعنا لقدرتك فارحمنا،

وانهدمنا في مخالفتك فاعمرنا، وتبددنا في ملكك فانظمنا[١]

(١) أبو حيان التوحيدي: الإشارات الإلهية تحقيق، د/ عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت ١٩٨١م، ص ٣٦٧.

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث

طبيعة الموت والسر فيه

الفصل الرابع

الخوف من الموت

الفصل الخامس

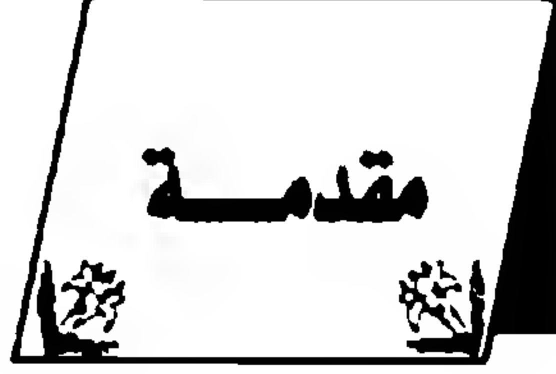
حكمة الموت

الفصل السادس

كيف ننتصر على الموت؟

***

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الواحد الأحد، الفرد الصمد، واجب الوجود الذي لا يحمد على مكروه سواه، الذي تقصده النفوس في الليل والنهار، وتفزع إليه القلوب في الملمات، وتدعوه في السراء والضراء، الملجأ الوحيد لهذه البشرية المعذبة، والملاذ للفقير والغني، السقيم والسليم، الضعيف والقوي.

الله ربنا، خالق كل شيء، أرحم الراحمين الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكلأنا بعطفه، ويشملنا برحمته، ويحرسنا بعنايته. وبعد:

* في مساء يوم الأربعاء ١٩ من سبتمبر ١٩٧٩. كانت القرية الكبيرة تنام هادئة مطمئنة في أحضان البحر الصغير، وفجأة وبلا مقدمات أو إنذار أو تمهيد، تجاوبت أصداء مآذن مساجدها بصوت النعي، يعلن قدوم

* جثمان المهندس/ أحمد الزيني من دولة العراق الشقيق، وكان ما كان، عاشت القرية في حزن عميق من صدمة المفاجأة وللسيرة الحسنة للشاب الراحل، ولف الحزن الشامل أفراد الأسرة الصغيرة، وهزها حادث الموت هزاً عنيفا، كأنه الزلزال المدمر، والبركان الثائر، وكان حال أسرتنا [1] حال أسرة السيد أحمد عبد الجواد بعد أن فقدت «فهمي» ابنها الأكبر في ثلاثية نجيب محفوظ، ولعل هذا الوصف التفصيلي، الذي وصفه رائد القصة العربية لأسرة أحمد عبد الجواد بعد موت فهمي يشبه حال أسرتنا. أما حال

(١) بين القصرين ص٥٧٤-٥٧٨، وأيضا قصر الشوق ص١٥ وما بعدها.

الأم «فقل ما شئت في هلع يبلغ بها حد الجنون»[١].

وبشيء من التفصيل يشبه حال أم رشدي عاكف في خان الخليلي بعد أن مات ابنها الأثير في ريعان شبابه بمرض السل.[٢]

أو كما صور أستاذنا المغفور له الدكتور زكي نجيب محمود (١٩٩٣م) موقف جدته بعد فقد ابنها الأول «جزعت على موت ابنها جزعا لم أشهد له مثيلا في كل من رأيت من الأمهات اللائي ثكلن أبنائهن»[٣].

* كان حادث الموت المروع، والمفاجأة المذهلة التي وقع بها، وقصر المسافة الزمنية بين سفر الشاب – بحيويته الفياضة، وشبابه الغض، وابتسامته الواسعة وطموحه الوثاب، وعزيمته الحديدية – ثم عودته محمولا على الأعناق جثة هامدة راقدة في صندوق أسود، حافزا على التفكير والتأمل، والتدبر في الحياة والموت وإعادة النظر في قضية الموت وحتميته، ومصير الفرد والمجتمع والعالم أجمع، ودور الإنسان في هذه الحياة، والتأمل في المصير المحتوم الذي ينتظر البشرية في خاتمة المطاف، مهما طال مشوارها على درب الحياة فهو لا يعدو في نهاية الأمر إلا لحد كئيب مظلم أغبر في بطون الفيافي الجرداء.

وعلاوة على ذلك كان هذا الموضوع يشغل ذهني منذ تفتح عقلي على الحياة وأطللت بعمق على بعض أسرارها وألغازها، والتساؤل الملح يلف عقلي دائما من أين أتينا؟ وإلى أين نذهب؟

ما معنى الموت؟ وما سره؟ وكيف نحاسب في قبورنا؟ وما معنى كل هذه المراسيم التي تجري لنا؟ وإلى من يتكلم هذا الملقن؟ للأحياء أم للأموات؟

وهل نسمع القرآن المقروء بجانب رؤوسنا الموسدة التراب؟

وهل نعلم ما يجري في الدنيا ونحن في العالم الآخر؟

---

(١) قيم من التراث ص٣٣٦.

(٢) خان الخليلي ص٢٣٩ وما بعدها.

(٣) شروق من الغروب ص١١٨.

وإلى أين نذهب بعد الموت؟

وما المصير الذي ينتظر الإنسان؟ وما الحكمة الخافية وراء كل ذلك؟ [١]وألحت القضية على عقليبشدة وعنف.

ثم جاء موت الشاب المحبوب، بمثابة حافز وأي حافز على القراءة في هذا الموضوع والكتابة فيه.

* وكنت من ضمن ما قرأته لأستاذنا المغفور له الدكتور/ عثمان أمين (١٩٠٨-١٩٧٨م) كتاب الفلسفة الرواقية، وفهمت أنه جمع مادته العلمية في أثناء إعداده لدرجة الدكتوراه في فرنسا[٢].

ومن ثم تفتقت الخطة في ذهني للكتابة في موضوع الموت، ووافق هذا الموقف قيامي بالتسجيل لدرجة الدكتوراه بآداب القاهرة عام ١٩٨٠م – وتفرغي الكامل لجمع المادة العلمية لموضوعها، وفي الوقت نفسه عملت بجد وإصرار، وبلا كلل ولا تعب وبعزيمة تفل الحديد، على جمع المادة العلمية لهذا الكتاب «مشكلة الموت بين الفلسفة والدين». وكلما صادفتني فقرة أو عبارة أو حكمة تدور حول مشكلة الموت رصدتها، وكلما قرأت بيتا من الشعر، أو قصيدة حزينة تتكلم عن حتمية الموت بخاصة أو تجربة الموت بعامة سجلتها، وظل هذا دأبي طوال سنوات الدراسة والتحصيل حتى أعددت رسالة الدكتوراه.

بعد ذلك عدت إلى أوراقي أتصفح مادتها، واستكمل عناصرها، وأحلل قضاياها وأضيف إليها قدر طاقتي، وأدقق في كتب الشعراء والحكماء والفلاسفة ورجال الدين الإسلامي والمسيحي، لعلي أجد إجابة شافية عافية كافية للأسئلة الحائرة التي تطوف بعقلي دوما وأحاول أن أرفع الأستار المسدلة قدر إمكان الطاقة الإنسانية عن الكثير من الأسرار والألغاز التي تهز كيان الإنسان أينما وجد وحيثما كان.

---

(١) راجع تحليل كتاب الروح لابن القيم، في كتاب الدكتور محمد الزيني: ابن القيم وآراؤه الكلامية ص٦٧.
(٢) الفلسفة الرواقية، من التصدير، ط ١٩٤٥م.

* ونقطة أخرى متصلة بهذا الموضوع، استقرأتها من تجارب الحياة، ورحلة العمر القصيرة،وهي، لماذا كان الشعب المصري أكثر الشعوب احتفالاً بالموت؟

أعني لماذا حدث الموت يروع أفراد الشعب ترويعاً مخيفاً؟

ولماذا يؤثر في شعور الأفراد، ووجدانهم تأثيراً بالغاً؟

ولماذا نرى البكاء والنحيب والعويل والصراخ والإغماء سمة من السمات الملازمة لأي أسرة يرحل عائلها، أو أي فرد منـها.

ولعل أبرز مثال على ذلك، وأصدق شاهد على ما أقول، جنازة المغفور له الزعيم الراحل جمال عبد الناصر (١٩٧٠)، لقد خرج الشعب المصري كافة، أطفاله وصبيانه رجاله ونساؤه، كهوله وشيوخه، والجميع يبكي بحرارة، ويصرخ في تشنج لأنه فقد أباه الحقيقي الذي يعوله ويحميه من سهام الأيام.

وفي مقابل ذلك، أو عكس هذه الصورة، شاهدت أكثر من شعب عربي، يستقبل فجيعة الموت كأمر ضروري من ضروريات الحياة، علينا أن نتقبله، وأنه حق من حقوق الله وسنة من سنن الكون، فيأتي الموت ثم يمضي ولا يخلف وراءه من الحزن إلا القليل ويأتي النسيان فيبلع ما تبقى من الأحزان. كم رأيت من شباب غض في دول العالم العربي يتخطفه الموت، وتفترسه أنيابه ثم يكون رد الفعل هادئاً مقبولاً.

• ما تفسير ذلك؟

اجتهد فأقول، إن التاريخ الممتد في الماضي السحيق للشعب المصري ذي التراث العريق له أثره الخطير في حياته المعاصرة، فاحتفال أجداده من المصريين القدماء بقدوم الموت، وقيامهم على تحنيط جثثهم، والاحتفاظ بها سليمة مع وضع الأدوات التي كان يستعملها الميت معه في قبره، وزخرفة القبور بالنقوش والرسوم التي تعمل على طرد الأرواح الشريرة، وبناء المعابد الجنائزية، والتماثيل الفارعة من أحجار الجرانيت والديوريت والبازلت، علاوة على تشييد الأهرام التي تمثل أكبر مقابر في تاريخ الشعوب قاطبة لكي يدفن فيها الفرعون الحاكم وأسرته، ثم الاحتفالات المتكررة بذكرى الميت ومنها ذكرى الأربعين – إذ اعتقد المصري أن الروح سوف تعود ثانية إلى الميت -أضف

إلى ذلك الذكرى السنوية الأولى والثانية وهكذا، هذه نقطة.[١]

والثانية، إن المهنة الرئيسية للشعب المصري خلال تاريخه الطويل، كانت وما زالت الاشتغال بالزراعة، ومن أخص خصائصها، الاستقرار، والثبات، والتمسك بالمكان، والتشبث به لدرجة العبادة والحب العميق، والتعاطف، والتماسك الاجتماعي، وتعاون أفراد المجتمع فيما بينهم، ومساعدة كل منهم الآخر و تكفيك « نظرة سريعة إلى منجزات الحضارة المصرية لترى أن كثيراً جداً من تلك المنجزات هو من ذوات الجسامة والضخامة مما يستحيل على فرد واحد، أو عدد قليل من الأفراد أن يؤديه بل لابد من جماعات كبيرة تتعاون على إنجازه كالأهرامات والمسلات وأعمدة الهياكل وإقامة الجسور أيام الفيضان وغير ذلك»[٢]. «نعم كان المصري لا يعرف الحياة إلا تعاونا مع الآخرين من أبناء أسرته وقريته وأمته والتزامل في العمل»[٣]. والاجتماع لنصرة المظلوم وأخذ الحق له هذه المعاني ينتج عنها المودة والرحمة والترابط، انظر إلى بيوت القرية المصرية تجدها متماسكة مترابطة كأنها بنيان واحد يشد بعضه بعضا، وأفرادها كل متماسك كأنهم قلب واحد ورأي واحد.

الثالثة، الطابع العاطفي الذي اعتقد أنه سمة من سمات هذا الشعب البسيط الطيب الباسم الضاحك، صاحب القلب النقي، والنكتة التلقائية، والضحكة المجلجلة «وملعون أبو الدنيا». كما كان يردد «المعلم نونو» دائما وهو يفتح باب حانوته في خان الخليلي[٤].

إنه شعب ضاحك باك وهي سمة، أقرب ما تكون للنزعة العاطفية منها للنزعة العقلية، انظر إلى أفراحنا تجد فيها الإسراف في الفرح، والمبالغة في الزينات، والبذخ في شراء الأطعمة والأثاث والذهب، والسهر طوال الليل في الاستماع إلى الموسيقى والغناء، وفي الوقت نفسه تأمل ما يجري في حالة المآتم تجد الإسراف نفسه في الحزن والبكاء والعويل، والاحتفال بذكرى الميت المتتالية.

---

(١) د. أحمد فخري : مصر الفرعونية ، الأنجلو المصرية ، ١٩٩١ ص١١٦.
(٢) د. زكي نجيب محمود : قيم من التراث ص٢١٠.
(٣) المصدر السابق ص٢١١.
(٤) خان الخليلي ص٣٠ وما بعدها ، ومن الجدير بالذكر أن أبطال نجيب محفوظ في رواياته تصور جل السمات التي تتميز بها الشخصية المصرية.

وبالجملة فهذه التصرفات كلها أميل إلى الجانب العاطفي، إذ إنها تعتمد على أحاسيس القلب، وعمق الشعور وشدة الانفعالات، دون أن تستند إلى قوة الحجة أو الدليل المنطقي، أو برهان العقل.

* يبقى ملحظ أخير لعل له دلالة يستنبطها القارئ اللبيب بوضوح، فقد جمعت المادة العلمية لهذا الكتاب بمصر المحروسة طوافا بمكتباتها الغنية الوفيرة بالمصادر والمراجع، وكتبت فصوله في أثناء عملي بمعهد المعلمين بمدينة صور بسلطنة عمان الزاهرة (١٩٨٢-١٩٨٦م).

وأخط سطور هذه المقدمة بكلية التربية بمدينة حجة باليمن.

ثم يتاح لهذا الكتاب- بعد سجن طويل في أدراج مكتبي- فرصة الخروج والظهور على يد رجال يحبون العلم ويعملون على نشر كل ما يفيد الإنسان أينما كان في مدينة حجة العامرة، باليمن.

وآمل أن أكون قد قدمت بعض الإجابات عن الكثير من الأسئلة التي تدور في عقولنا جميعا. ونجحت في شرح أبعاد قضية الموت، وقدمت زاداً للقارئ المتحير يستطيع أن يتأمل فيه، ويناقشه، ويطمئن إليه أو يشك فيه، يقبله أو يرفضه، ويتفهم جوانب طبيعة الموت، وحكمته كفعل من أفعال الإرادة الإلهية حتى لو غابت هذه الحكمة عن أعيننا.

ثم توقفت طويلاً أمام أسباب خوف الإنسان من الموت محاولاً سبر أغوارها، وكشف أسرارها، والغوص في أعماق الإنسان، والاقتراب من باطنه لسماع هواجسه ووساوسه ومخاوفه وقلقه.

وفي النهاية، استعرضت العوامل التي تساعدنا على تقبل فكرة الموت، و هي تتلخص في قبول الإرادة الإلهية التي قررت أن يكون الموت: قانون من القوانين الأساسية للوجود.

ولله الأمر من قبل ومن بعد. إنه نعم المولى ونعم النصير.

محمد الزيني
مدينة حجة - اليمن
١٥ / مارس/ ١٩٩٦م

* * *

الفصل الأول

وقفة أمام أسرار الحياة والموت

الفصل الأول

وقفة أمام أسرار الحياة والموت



١- لغز الحياة والموت:

كثيرة هي أسرار الوجود، إنه لغز مبهم غامض: أستار كثيفة مسدولة تحجب حقائق هذه الحياة على خلاف ما قد يبدو للوهلة الأولى، يبدو الوجود كأنه صفحة كتاب مفتوح، يستطيع أن يقرأ سطورها كل من يشاء ولكن عندما نبدأ فى قراءة هذه الصفحة.. تبدأ المزالق ومواطن الغموض ونواجه سراً بعد سر، ومعضلة وراء معضلة وسلسلة لا تكاد تنتهي.

أو كأنه صفحة بحر هادئ لا تلبث أن تتحول موجاً غاضباً يزمجر بالويل والثبور وعظائم الأمور.

هكذا يقف الإنسان أمام أسرار الوجود؛ مبهوتاً، حائراً، خائفاً، كالواقف على شفا الهاوية يتحسس نفسه فى ريبة وحذر، أو كطفل ضاع فى الزحام، يبحث عن أبيه، فكأنه فقد كل الحياة وكل الوجود.

قد يتعقل قليلا من الأسرار ولكن هذا القليل لا شيء بالنسبة إلى الكثير الكثير الذي لا يتناهى، الوجود في نظر الرجل البسيط شيء جلي مفهوم لا يحتمل المساءلة بله المحاجة. ولكن أمام النظرة المتفحصة التي تسبر الأغوار البعيدة؛ لغز من الألغاز، ومشكلة من أعقد المشكلات وقد لمس القديس أوغسطين[1] +٤٣٠م جانبا من هذا وهو يتساءل عن

(١) ولد القديس أوغسطين في طاجسطا بالجزائر عام ٣٥٤م، وقد أقبل على شهوات الدنيا، وتنقل بين المذاهب الفلسفية ما بين المانوية، والأفلاطونية الجديدة ثم اعترته أزمة شك عنيفة، حتى اعتنق المسيحية، فوهب حياته في الدفاع عنها. (يوسف كرم: الفلسفة المسيحية ص ٢٠٣، حسن حنفي: نماذج من الفلسفة المسيحية ص ٩). محمد الزيني: أوغسطين وفلسفته، مجلة كلية الآداب العدد ٢١ صنعاء ١٩٩٨.

ماهية الزمان قائلاً: «إذا لم تسألني عنه عرفته، وإذا سألتني عنه لم أعرفه!»[١].

هكذا تلوح أبسط حقائق الحياة والوجود لفكر الإنسان المتأمل الواعي، كأعقد المشاكل أمام السؤال الحائر.

نعم إن «الحياة في أساسها سر، إنها نهر يتدفق من نبع مجهول، وهي في نموها ذات حيل لا حد لها يعجز الفكر لشدة تعقدها عن معرفتها وهو في التعبير عنها بالقول أشد عجزا..»[٢].

الإنسان المتأمل الواعي في مواجهته لأسرار الحياة والوجود، في مواجهته للفناء والموت وما وراء الفناء والموت؛ في مواجهته للخير والشر، وعواقب الخير والشر؛ في مواجهته للقضاء والقدر وحرية الإرادة ومدى المسئولية إلى آخر مالا آخر له. هذا الإنسان لا يتقبل هذه القضايا كمسلمات أو أولويات يؤمن بها دون وسائط ودلالات، بل إنه ليتطلب الدلائل والبراهين بمقدماتها الصحيحة ونتائجها الحتمية. فهو دائب البحث عن الحقيقة من طريق المعرفة هذا الذي لا طريق سواه يضني في ذلك فكره وعقله وكيانه كله.

ما معنى الحياة والموت؟ الله سبحانه «أنشأ الحياة والموت.. وهما أمران معروفان كل المعرفة بوقوعها المتكرر، ولكنهما خافيان كل الخفاء حين يحاول البشر أن يعرفوا طبيعتهما وسرهما الخافي على الأحياء.. فما الموت؟ وما الحياة؟ ما حقيقتهما حين يتجاوز الإنسان لفظهما وشكلهما الذي يراه؟ كيف دبت الحياة في الكائن فكان؟ وكيف سارت في طريقها الذي سارت فيه بهذا الكائن؟ وما الموت؟ وكيف كان.. قبل دبيب الحياة؟ وبعد مفارقتها للأحياء؟

«إنه السر الخافي وراء الستر المسبل، بيد الله!»[٣].

إن أسرار الحياة والموت المعماة، ووقائعها المحيرة هي التي تقود البشرية إلى هذه

---

(١) أوغسطين: الاعترافات ص٢٤٩.

(٢) ديوارنت: مباهج الفلسفة جـ ٢ / ٢٩١.

(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن جـ ٢٧، تفسير سورة النجم ص ٦٣٠.

النظرة الكئيبة والتساؤل الذاهل المفجوع: «شقاء هي الحياة ومجهول هو يوم الموت إن فاجأني، فكيف أغادر هذا العالم؟ وأين أتعلم ما قصرت عنه في هذه الحياة»[١].

إن الإنسان يريد أن يحل كل هذه المعضلات، يريد أن يطمئن إلى وجوده، وإلى معنى حياته: لماذا جاء إلى هذه الحياة، بكل ويلاتها؟ وكيف سيصحبها أو ستصحبه؟ وإلى أين هو ذاهب؟ وهل يكفيه أن يردد مع أبي العلاء (ت ٤٤٩هـ):

«تعب كلها الحياة.؟» وهل اكتفى بذلك أبو العلاء نفسه وهو المتحير الأكبر والمتلهف الذي لا يقتنع؟

من يأخذ بيد الإنسان في هذا الكون الملغز المبهم.. في هذه المتاهات المتشابكة ... من ينير له الدرب ويهتك له الستر وهو ينادي بأعلى صوت: «أين الحكيم يكشف لنا هذه الستائر؟ ويزيح الستار عما في الحياة من الغوامض»[٢].

إن حب الإنسان الدافق لهذه الحياة هو الذي دفعه كي يستجلي أسرارها ومع هذا لم يغب عنه شقاؤها، وكان متفهما لأبعاد مآسيها، وأحزانها، هذا هو علي بن أبي طالب يقول في وصف الدنيا: «ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء، في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، من صح فيها سقم ومن مرض فيها ندم، ومن استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن»[٣].

وهذا الخوارزمي (ت٣٨٣ هـ) ينزح من البشر نفسه: «أف لهذه الدنيا ما أكدر صافيها وأخيب راجيها، وأغدر أيامها ولياليها، وأنغص لذاتها وملاهيها؛ تفرق بين الأحبة بالفوات، وبين الأحياء والأموات بالوفاة»[٤].

وهذا المبرد (ت٢٨٥هـ) لا يشذ عن صاحبيه: «الناس لا ينفكون من المصائب، من لم يثكل أخاه؛ ثكله أخوه، من لم يعدم نفيسا كان هو المعدوم دون النفيس وحق الإنسان

---

(١) أوغسطين : الاعترافات ص ١١٤.

(٢) مي زيادة : ظلمات و أشعة ص ٣٨.

(٣) المبرد : الكامل جـ١ / ١٥٢.

(٤) رسائل الخوارزمي : ص١٠.

الصبر على النوائب واستشعار ما صدرناه، إذا كانت الدنيا دار فراق ودار بوار، لا دار استقرار»[١].

والناس مع أبي العلاء على شقاء الحياة، ولكنهم ليسوا معه على عجبه ممن يطلب المزيد، إن كان طلب المزيد لا يروقه هو، فهو يروق الكثيرين الكثيرين سواه.

هذه هي النغمة التي يضربون عليها عندما يتحدثون عن الكون وحقائقه.. والحياة وأسرارها، أما أنا فأعتقد أن كل الحقائق من الممكن فهمها، واستيعابها أو على الأقل الإيمان بها في الجملة، مع إطراح الجدل في تفاصيلها التي تهم الإنسان أو الخوض في هذه التفاصيل بحذر.

إلا أن هناك حقيقة محيرة ومؤلمة لهذا الإنسان: إنها مشكلة المشكلات الموت. إنها – في ذاتها حقيقة واضحة لا يمكن إنكارها إلا لسوفسطائي ينكر حقائق الأشياء.

وإذا كان الكثيرون – من غير السوفسطائية – قد تنكروا لكثير من الحقائق وأعلاها وأسماها «حقيقة واجب الوجود» وموهوا بكثير من الجدل والمشاغبة فإنهم لا يستطيعون أن ينكروا هذه الحقيقة (الموت) بل لا يستطيعون أن ينكروا قوة الموت، وسلطانه، وجبروته، ودبيبه الدائم في أعطاف الحياة ينسل خلال خلاياها خلية بعد أخرى، ووجوده المتصل في كل مكان وزمان «إن الحياة رحلة خلال سلسلة من وفيات»[٢] على حد تعبير الفيلسوف محمد إقبال المتوفى عام ١٩٣٩م.

وإيمان الإنسان السوي بالموت يبدأ مبكرا جدا قبل كثير من حقائق الوجود ففي مرحلة الطفولة يغمض علينا فهم وجود «واجب الوجود» أو تصور شامل لمفهوم العناية الإلهية، أو الخير والشر، ولكن لا يغمض علينا فهم معنى الموت، الذي نعايشه منذ نعومة أظفارنا، حقيقة واقعة مروعة تخطف أحباءنا وأصدقاءنا ورفقاءنا من بين أيدينا، وتتركنا مبهوتين ملتاعين.

---

(١) الكامل جـ٤ ص ١٧.
(٢) تجديد التفكير الديني ص ٦٦.

ومن ثم تترسب في نفس الطفل حقيقة الموت مطلقة، عامة عارية يتساوى أمامها الجميع فلا تمايز ولا تباين.

وبعد استيعاب هذه الحقيقة البسيطة، ومع نمو قدرات الإنسان العقلية واستعداده الوجداني تبدأ تساؤلات أخرى: تساؤلات عن طبيعة الموت، وهل هو ضرورة من ضرورات الوجود بعد تحقق الحياة؟ وهل هناك من حكمة لوجود هذه القوة المدمرة نفسها؟

ما معنى الموت؟ ما حقيقته؟ ما معنى هذا التحول في طريق الفناء؟

كيف يتحول هذا الإنسان الحي المتحرك، النابض بالحس، وربما المنتشي بالفرحة المتشوف إلى المستقبل في ابتسام وتفاؤل - كيف يتحول هذا الإنسان في لحظة واحدة، إلى جثة هامدة؟!

لا حركة، ولا نبض، ولا نشوة ولا بسمة، جثة هامدة، من الأكرم لها ولنا أن توارى بأعماق الثرى في جوف قبر مظلم تأوي إليه الحشرات والهوام، وربما بوسيلة أخرى أشد إيغالا في الإطراح والمواراة!

ثم إلى «أين نذهب بعد هذا الموت؟ ماذا يجري لنا بعد أن تصعد الروح إلى بارئها؟ وما حالنا منذ ذاك؟ هل نسمع ونرى بطريقة أو بأخرى؟ ونشعر بما حولنا، والذين يودعوننا إلى مثوانا الأخير؟ هل نستأنس بهم وهل نصغي إلى هذا الملقن الذي أقحموه كدعابة على موقف هو أبعد ما يكون عن الدعابات؟ هل نستوعب نصائحه إن صح أن تسمى نصائح، وكلامه الذي قد يروق جرسه للوهلة الأولى؟ هل ندري إذا استقررنا هناك أننا في القبر؟ وهل نسمع القرآن المقروء بجانب رؤوسنا الموسدة التراب، إن بقيت لنا رؤوس؟ وهل نعلم ما يجري بعدنا في الدنيا ونحن في العالم الآخر، أ نسعد بهذا العالم الآخر أم نشقى به؟»[1].

إنها أسئلة حائرة، تجتاز منطقة مبهمة، من الصعب كشف أسرارها، فالذين يذهبون

(١) محمد الزيني : ابن القيم وآراؤه الكلامية ص ٥٧.

لا يعودون لكي يقصوا علينا القصة كاملة أو منقوصة: الذين ساروا في الطريق حتى نهايته يذهبون بأسرار الرحلة والذين شربوا الكأس حتى الثمالة لا يستطيعون أن يبوحوا بكنه طعمها!

«أيها الموتى أطيرا كنتم أم بشرا، ألا تنطقون مرة واحدة لكي تفضوا إلينا بما طوى من الأسرار وراء حجب الردى؟ ألا تهمسون في نفوسنا بالكلمة الأولى من اللغز الأزلي السرمدي الكامن في ضمير الوجود»[1].

هكذا يقف الإنسان حائرا أمام الموت وأسراره، مهزوما في مواجهته، ليس له حيلة في الفكاك منه، عليه أن يتقبل- شاء أم أبى- ذلك «الزائر المرعب» ويسلم له قياده إلى حيث لا يدري ولا المنجم يدري إلا أطيافا كحلم النائم قلما يطرقها اليقين.

وكل ما استطاع أن يفعله – عندما عجز عن أن يمد عمره في هذه الحياة هنيهة واحدة – أن حاول الالتفاف للوصول إلى هذه الغاية بصور مختلفة تمثلت في التراث الضخم المادي والمعنوي الذي خلفته لنا حضارات الأجناس المتباينة، الدانية والقاصية إلى أن تداركه الغوث الروحي من قبل السماء، ثم عمل جاهدا على أن يفلسف هذا «الحدث المروع» ليسهل عليه – إلى حد ما – تقبله والانقياد له بغير كثير من الوجل والخوف، أو الجزع والهلع.

٢- صيرورة الوجود:

قانون التغير والصيرورة، هو السمة المميزة لهذا الوجود؛ فهذا في طبيعة الحياة التي نحياها؛ في إطار هذا الكون لا يكاد يثبت شيء على حال أو كما يقال: بقاء الحال من المحال.

وقديما تنبه هيراقليطس[2] (+ ٤٧٥ ق.م) لهذه الظاهرة المطلقة، وقررها بلا لبس؛ إذ

---

(١) مي زيادة : ظلمات وأشعة ص ٣٨.

(٢) من الفلاسفة الطبيعيين في بلاد اليونان ولد في أفسوس عام ٥٤٠ ق.م من أسرة عريقة في الحسب، اتسمت حياته بالزهد لكنه كان أرستقراطيا معتدا بنفسه.
(يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٧ ، أميرة حلمي مطر : الفلسفة عند اليونان ص ٥٣.

رأى النهار يعقبه الليل والشمس يتبعها القمر، كل في فلك يسبحون وكيف يتعاقب الحرب والسلام، والحر والبرد، وتتحول طردا وعكسا اليبوسة إلى سيولة، والماء إلى بخار، والصحة إلى مرض والغنى إلى فقر. والحياة إلى فناء. حتى لقد قال مقولته الشهيرة: «إنك عندما تنزل النهر فلا تنزله مرتين لأن مياها جديدة سوف تغمرك باستمرار»[١].

وانظر أنت إلى بذرة القمح الصغيرة كيف تتحول من قريب إلى برعمة ندية خضراء، ثم تنمو وتنمو حتى تستوي على ساق، ثم تكون نباتا مكتمل النضج تحوي ثماره كل خصائصها، ثم إذا هي قشة تذروها الرياح العاصفة فيما تذرو فلا يعثر لها على قرار إن كان ثم قرار.

أو انظر إلى رحلة الحياة بالنسبة إلى الإنسان: حيوان منوي لا يرى إلا بالمجهر، يلتقي مع بويضة الأنثى، ويكونان خلية تحمل كل الصفات الوراثية الكامنة فيها، تتحول بعد إلى جنين في أطواره الأولى ثم في أطواره الأخيرة فطفل صغير، فغلام، فشاب فرجل فكهل فشيخ قد يرد إلى أرذل العمر ثم النهاية التي لا مفر منها هي النهاية الحتمية خلال أو بعد ذلك.

«ومن يتوفى فهو صائر إلى نهاية كل حي، وأما من يرد إلى أرذل العمر فهو صفحة مفتوحة للمتدبر ما تزال»[٢] وما ينطبق على النبات والحيوان الناطق وغير الناطق، ينطبق على مظاهر الطبيعة جميعا « فلا ثبات لشيء من الدنيا وإن كان شريف الجوهر كريم العنصر، ما دام مقلبا بيد الليل والنهار، معروضا على أحداث الدهر وتعاور الأيام» [٣].

هذه الحقيقة- حقيقة ديناميكية الوجود- لم تكن وقفا على هيرقليطس الذي توفر على دراسة هذه الظاهرة، فممن تنبه إليها قديماً الشاعر الجاهلي امرؤ القيس[٤] المتوفي عام ٥٦٥

---

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٧.
(٢) في ظلال القرآن جـ ١٧ / ٥٨٢ ، وأيضا جـ ١٤ / ٢٦٢.
(٣) معجم الأدباء جـ ١٦ / ٢١.
(٤) هو امرؤ القيس بن حجر الكندي ، ولد في نجد أوائل القرن السادس الميلادي ، عاش حياة الصعلكة العربية حتى أتاه خبر مقتل أبيه ، فأخذ يعد بثأره ومات بسبب الجدري وفي شعره رقة اللفظ وجودة السبك وبلاغة المعنى (بروكلمان : تاريخ الأدب العربي جـ ١ / ٩٧، شوقي ضيف : العصر الجاهلي ص ٢.

م عندما قال: إنما الدهر ليال وعصر ليس شيء يستمر[١].

والشاعر الزاهد أبو العتاهية[٢] المتوفى عام ٢١١ هـ إذ يقول:

نحن في دار بلاء وأذى، وشقاء وعناء وعنت

منزل ما يثبت المرء به سالما، إلا قليلا إن ثبت [٣]

والشهيد سيد قطب المتوفى عام ١٩٦٦م يقف أمام هذه الظاهرة بشيء من التأمل والتحليل وهو بصدد تفسير قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩] فيقول: «تلك العملية الدائبة التي لا تكف ولاتنى لحظة واحدة من لحظات الليل والنهار في كل مكان، على سطح الأرض، وفي أجواز الفضاء، وفي أعماق البحار.. ففي كل لحظة يتم هذا التحول. بل هذه المعجزة الخارقة التي لا نتنبه إليها لطول الألفة والتكرار، في كل لحظة يخرج حي من ميت، ويخرج ميت من حي، وفي كل لحظة يتحرك برعم ساكن من جوف حبة أو نواة فيفلقها ويخرج إلى وجه الحياة، وفي كل لحظة يجف عود أو شجرة تستوفى أجلها فتتحول إلى هشيم أو حطام، ومن خلال الهشيم والحطام توجد الحبة الجديدة الساكنة المتهيئة للحياة والإنبات؛ ويوجد الغاز الذي ينطلق في الجو أو تتغذى به التربة وتستعد للإخصاب. وفي كل لحظة تدب الحياة في جنين: إنسان أو حيوان أو طائر»[٤].

وهذا التغيير المصاحب للموجودات، لا يجيء خبط عشواء، بل يخضع لقوانين سارية خلال الكون. قد نسميها بالقوانين الأزلية، أو الاتساق المقدر كما يقول ليبنتز+١٦١٥م، أو العناية الإلهية

---

(١) ديوان امرؤ القيس ص ٤.

(٢) هو إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان ولد في عين التمر بالعراق ١٣٠ هـ وكان أبوه يشتغل بالحجامة، ثم انتقل إلى الكوفة، وهناك تلقى ابنه العلم وظهر نبوغه فقربه إليه المهدي والهادي والرشيد، وفي آخر حياته تزهد ولبس الصوف ومات ٢١١هـ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي جـ ٢ / ٣٤، شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي ص ٦.

(٣) ديوان أبي العتاهية ص ٧٣.

(٤) في ظلال القرآن جـ ٢٧ / ٤٤٦.

﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: ٢٣].

ومن قوانين الحياة الفناء: الوجه الآخر المقابل لها. وهو قانون حتمي مطلق لا مفر منه ويمثل سمة لافتة وباهرة من سمات هذه الحياة، وما «الموت» فيما وراء الطبيعة إلا مظهر من مظاهره أو أداة من أدواته نقف أمامها في خشوع وتدبر، وتأمل وتفكر، عسى أن تتفتح لنا بعض أغلاقها.

٣- الوعي المبكر لحتمية الموت:

«حتمية الموت» مسألة حسية وعقلية: بمعنى أنها تجربة يومية نلمسها بأنفسنا، ونعيشها كل يوم من أيام حياتنا؛ وعقلية لأننا نعيها بعقولنا، ونتقبلها بضمائرنا ويبقى السؤال هل هذه هي نظرة الإنسان البدائي القديم؟

يذهب أحد الباحثين الأوروبيين إلى «أننا لا نجد في أقدم مراحل التطور الإنساني إنكاراً لنهائية الموت فحسب، وإنما نفيا لحتميته كذلك»[١].

وأغلب ما لوحظ أن الإنسان البدائي حينما يرى رجلاً يموت من أبناء جنسه فإن ذلك يبدو له كما لو كانت المرة الأولى التي يحدث فيها شيء من هذا القبيل وأنه لم يسبق له أن شاهد مثل تلك الواقعة. وتفسيره لأسباب الموت ترجعه « لقوة خفية » قد تدخلت فأودت بحياة الإنسان. فالموت عنده هو «نتاج عمل عدو أو تأثيره الشرير، سواء في شكل إنساني أو روحاني»[٢].

أما بالنسبة إلى منشأ معرفة الطفل بالموت، فهو يعي هذه المسألة في مراحل الطفولة المتوسطة. فهذا الطفل الذي يلهو بطائر أو حيوان صغير في حبور أي حبور، كثيرا ما يفجأ الموت لعبته الحبيبة فينتزعها من بين يديه لتصير جثة بلا حراك، دون مبالاة بفجيعة الطفل في مباهجه، لتخلى مكانها للدمعة والآهة واللوعة. وربما يكون هذا بالنسبة إليه أول مواجهة صريحة مع الموت. ويتقبل الطفل على مضض هذه الحقيقة المروعة التي تهزه من

(١) جاك شورون: الموت في الفكر الغربي ص ١٥.

(٢) ليفي بريل: العقلية البدائية ص ٣٧ (نقلا عن جاك شورون: الموت في الفكر الغربي ص ١٦).

الأعماق، ويترسب في باطنه الخوف الدائم، والحذر المستمر من الموت، كشيء رهيب - وإن كان بتفكيره الطفولي لكي يهدئ ثائرة نفسه - يعتقد أن الموت لا يأخذ الأطفال الصغار أمثاله[١]، بالرغم من أنه يرى بعض أصدقائه الصغار قد صحبهم الموت في رحلته الغامضة إلى المصير المحتوم.

«ويقدم لنا جيزيل صورة مفصلة لنشأة فكرة الموت عند الأطفال: فالطفل في الخامسة من عمره يظل غير قادر على تصور عدم كونه على قيد الحياة أو أن أحداً قد عاش قبله، فيدرك الطابع المتناهي للموت، وقد يظن أن بمقدوره العودة للحياة وموقفه من الموت هو موقف التجرد من الانفعال والتسليم بالأمر الواقـع.

أما الطفل في السادسة من العمر؛ فيبدأ مرحلة الاستجابة الانفعالية تجاه الموت، وتظهر عليه علامات القلق من احتمال موت أمه، ويظل على عدم تصديقه بأنه هو نفسه سيموت.

أما في سن السابعة؛ فيتشكك في هذه الفكرة وفيما بين الثامنة والتاسعة يدرك إدراكا واضحا أن الجميع سيموتون، وأن الموت أمر حتمي في هذه الحياة»[٢].

وبمرور الأيام يصير رجلا عاقلا، ويظل هذا الإحساس المنغص مسيطرا على وجدانه؛ وبشيء من التقبل الفلسفي يدرك أنه في داخله: «ينطوي على جرثومة موته»[٣].

٤- الموت مشكلة فردية وجماعية:

هذا التقبل لا يقلل من قيمة المشكلة، وإحساس الإنسان أنها مشكلة فردية وجماعية إلا أنها تخصه بالدرجة الأولى: فهي ملتصقة به تهدد وجوده الحي، في كل لحظة من لحظات ليله ونهاره، تتبع خطاه.. بخطى وئيدة أو سريعة، وفي جميع الحالات بإصرار عنيد، لا فكاك منه ولا مهرب، وبين آونة وأخرى يرى الموت رأي العين في العيون الساهمة، والعبرات المنحدرة، والصرخات المعولة في وداع راحل، وفي المشاهد الحزينة للنفوس

(١) بنجامين سبوك : مشكلات الآباء والأمهات ص ٢٣٦.
(٢) الطفل من الخامسة إلى العاشرة ص ٤٤٩ (نقلا عن جاك شورون : المصدر السابق ص ١٨).
(٣) أوغسطين : الاعترافات ص ٧.

المحمولة على الأعناق أو غير الأعناق إلى المثوى الأخير، وما وراء المثوى الأخير.

شعور مرير، وتجربة تعسة يزيدان من مأساة الإنسان في هذه الحياة ويؤكدان أن الموت «من أعظم المشكلات الفردية التي قلما عرفت بهذه الصفة»[1]. ومن أعظم المشكلات الجماعية أيضا. لأن الجماعة عبارة عن مجموعة أفراد تعيش على أرض واحدة، وتجمعها مجموعة من الروابط المادية والمعنوية، والموت حثيث في طلبها زرافات ووحدانا: فأنا وأنت، وهو وهم، ونحن وأنتم، والأجيال تتتابع جيلا وراء جيل، أرحام تدفع وأرض تبلع؛ وتظل الأرض هي الأرض، والسماء هي السماء لا تباليان من ذهب ومن بقي، هكذا شاءت العناية الإلهية.

ولو قارنا بين الموت على المستوى الفردي والمستوى الجماعي، لوجدنا أن الأول أكثر إلحاحا على العقل، وأبلغ تأثيرا في الوجدان، وأشد سحقا للنفس البشرية؛ فالموت على هذا المستوى ليس مفزعا فحسب، بل هو مروع ومدمر فيه « يتم الشعور بالفردية إلى أقصى درجة إذ يشعر من يموت أنه يموت وحده لا يشاركه في موته أحد، ولا يستطيع أحد أن يحمل عنه عبء موته فيقوم بالموت بدلا منه»[2] على حد تعبير مارتن هيدجر (+١٩٧٦م).

أما الموت على المستوى الجماعي فيتعلق بالذات الجماعية الهلامية - إن صح التعبير - وإن كان يتمثل بمعيار أنت وأنتم، وهو وهم، ولكنه لا يخص الأنا.. ومن ثم فهو لا يستحق منا إلا مواساة الآخرين. إذ إن «الذات» مازالت معافاة من هذه الآفة البغيضة والموت هنا «كبندول الساعة» [3] صعودا وهبوطا في حصاده لنفوس الآخرين، وإطفائه لومضات حياتهم، بينما هو لا يقترب من نطاق «الأنا»- فهذا النطاق حتى الآن آمن ولو أمناً حذرا، أو الموت هنا كمثل «الحوت» الذي يسبح في بحار الآخرين، يلتهم ما يلتهم من أرواحهم ولكن مياه «الذات» الإقليمية- باصطلاح علوم البحر- تظل في مأمن من

---

(١) سكنر : تكنولوجيا السلوك ص٢٠٨.

(٢) الدكتور عبد الرحمن بدوي : دراسات في الفلسفة الوجودية ص٨٩ وأيضا الدكتور زكريا إبراهيم : دراسات في الفلسفة المعاصرة ص٤٣٨.

(٣) هذا الاصطلاح يرجع للروائي العربي نجيب محفوظ ، قرأته له في مجلة الهلال المصرية في الستينات.

جولات وصولات الحيوان الجائع المفترس وبتعبير آخر «لو أننا نظرنا إلى الموت على مستوى الحياة العادية، لوجدنا أن الناس ينظرون إليه على أنه مجرد حدث يقع للآخرين في العالم، وآية ذلك أننا نرى «الآخرين» يموتون، فنعتبر الموت هو موت الآخر (لا موت الأنا) ونحاول أن نخفي عن أنفسنا واقعة «وجودنا من أجل الموت «عامدين إلى القضاء على كل قلق قد يساورنا بهذا الخصوص»[1].

ألا ترى إذن أن الموت لا يتحول إلى مشكلة حادة إلا بمقدار اقترابه من دائرة عواطفنا الخاصة، ووجداننا؛ أي بمقدار اقترابه من الذات أولا، ثم دائرة اهتمامها المباشر، القاصر على الأهل والقريب والصديق، وفيما عدا ذلك فالموت هو موت الآخرين، على ما فيه لنا نحن من مخافة ورعب، كما أشار باسكال[2](+١٦٦٢م) في تشبيهه الشهير: «تصور عددا من الناس مقيدين بالسلاسل وكلهم محكوم عليهم بالموت، ويذبح البعض منهم كل يوم على مرأى الآخرين، ويرى الباقون حالتهم الخاصة من خلال حالة رفاقهم، وينظرون إلى بعضهم البعض بحزن ويأس وهلع ... وهم ينتظرون دورهم، هذه صورة للحالة البشرية»[3].

ويقدم الفيلسوف الفرنسي الوجودي مارسيل[4] (+١٩٧٣م) وصفا مشابها لهذه النقطة فيقول: «الموت لا يصبح إشكالاً أليما، اللهم إلا حينما نكون بصدد موت الـ أنت (أو موت الحبيب) ومعنى هذا أن الموت لا يقلقنا ويقض مضاجعنا حينما نكون بإزاء واقعة الفناء بصفة عامة وإنما حينما نكون بصدد غياب الشخص الذي نحبه غيابا مطلقا، إذ هنالك يصبح موته تحديا لنا وتحطيما للوحدة القائمة بيننا»[5].

---

(١) زكريا إبراهيم : دراسات في الفلسفة المعاصرة ص٤٣٧.

(٢) ولد في كليرمون بفرنسا عام ١٦٢٣م من أسرة تعمل بالقضاء، وقد توفر والده على تعليمه الرياضيات، حتى أصبح عالما كبيرا.(نجيب بلدى : بسكال، يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص٨٩).

(٣) سكنر : تكنولوجيا السلوك ص٢٠٨.

(٤) جبرائيل مارسيل ولد في باريس سنة ١٨٨٩م من عائلة مسيحية بورجوازية وقد نبغ في دراسة الفلسفة، وعمل بالتدريس، والاشتغال بالصحافة (زكريا إبراهيم : دراسات في الفلسفة المعاصرة ص٤٩٩.

(٥) زكريا إبراهيم : دراسات في الفلسفة المعاصرة ص٤٩٩.

٥- موت الإنسان ليس كسقوط الثمرة الناضجة:

تبقى نقطة تزيد من قتامة صورة الموت؛ ذلك أنه يلاحق خطواتنا في كل مكان وزمان، ليواثبنا أينما ومتى شاء. إنه قد لا يمهلنا حتى نحقق آمالنا، ونحصل على مآربنا،ثم بعد ذلك يمد يده القاسية ليقطف ما شاء من قطاف العمر الدانية « كالثمرة الناضجة اللذيذة » اكتمل نموها ونضجها وحان قطافها شهية حلوة المذاق؛ بل يهتصر الغصن الرطيب قبل أن يثمر، ويجتز الثمرة الطالعة قبل أن تنضج، فإذا الجثث الهامدة في ملاعب الطفولة، وفي مراتع الشباب، أكثر ما تكون، وإذا الآمال والأحلام قصور خاوية من رمال.

ربما يكون فيلسوفا بعيد الغور من زعم أن «من ولد يموت بعد أن ينضج ويحين حصاده»[١]. إلا أنا أعجز من أن نسبر غوره، ومع هذا لا نوافقه على هذا الزعم.

فنحن جميعا- كما يقول حبر الأمة- ابن عباس: «الموت من ورائنا والقبر أمامنا»[٢] هذا الحصار الذي لا فكاك منه يستمر حولنا طفولة وشباباً، وكهولة وشيخوخة، وكما يطبق على الشيخ في أرذل العمر يطبق على الطفل الذي ولد لساعته إلى آخر السلسلة. وهذا الفيلسوف البعيد الغور حين يقول: «المرء كسنبلة القمح تولد لتنضج، وتحصد متى آن أوانها»[٣] ماذا يعني؟ إذ لا يخفى عليه ولا على أحد أن ليس من الضروري أن يعيش الإنسان حتى ينضج في حقل الحياة على يد الشيخوخة أو على أية يد دون يدها، كما ينضج النبات في حقله، بل ولا ذلك من الضروري بالنظر إلى النبات نفسه.

وقديما ذهب ماركوس أوريليوس[٤]الرواقي (ت ١٨٠ م) إلى هذا التشبيه، فاعتقد أن موت الإنسان يشبه سقوط الثمرة التامة النضج «ولكن الحقيقة أن الإنسان مهدد بالموت في كل لحظة من لحظات حياته إن لم نقل منذ بداية حياته، فليس في موتي واقعة

---

(١) يوسف موسى: تاريخ الأخلاق ص١٣٢.

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين جـ٤ /١٨٤.

(٣) يوسف موسى: تاريخ الأخلاق ص١٣٢.

(٤) من زعماء الفلسفة الرواقية في طورها الثالث والأخير وكان إمبراطورا على روما ولد عام ١٢١م (د/ عثمان أمين: الفلسفة الرواقية ص٢٠٧).

تظهر في خاتمة حياتي بل إنما هو واقعة ماثلة في كل لحظة من لحظات حياتي»[١]، ويمضي مارتن هيدجر في رده على الفيلسوف الرواقي، فينفي أن يكون الموت تتويجا للحياة،بمعنى القمة العليا التي تبلغها، وليس هو الثمرة التي تبلغ فيها الحياة تمام نضجها، لأن الحياة لا تبلغ أعلى درجاتها في الموت، ولأن الثمرة تمثل التمام بينما الموت تحطيم للحياة وقضاء عليها»[٢].

٦- سخرية الموت من البشر:

لا تتوقف قصة الموت مع الإنسان على هذه الملاحقة المستمرة، ففي قمة سعادة الإنسان يأتي الموت ساخرا. تمد الحياة أسبابها للإنسان، وتعطيه الكثير والكثير من الصحة والمال والبنين والعلم وذيوع الصيت حتى ليطغى ويستكبر، ظاناً أن قد حيزت له الدنيا بحذافيرها، فإذا لطمة ثقيلة مفاجئة من يد الموت المتربص الساخر، ترده إلى وعيه الحقيقي؛ إنه ليس إلا ذرة مغرورة في هذا الهباء السابح تتلاشى، أو نبتة مغمورة في البرية تجف، أو قطرة ماء في محيط تتبخر! هكذا في قمة الفرحة تأتي الأحزان! ولكل شيء إذا ما تم نقصان «قضية صادقة في أغلب الأحوال.

العجيب أن الإنسان- وهو يتربص به الموت من كل مكان – يغر بطيب العيش، ورغد الحياة، وابتسام الدنيا، وينسى دوماً: « أن النعم زائرة، وأنها لا محالة زائلة، وأن السرور بها إذا أقبلت مشوب بالحذر من فراقها إذا أدبرت، وأنها لا تفرح لإقبالها فرحا حتى تعقب بفراقها ترحاً، فعلى قدر السرور يكون الحزن»[٣]. على أية حال فالإنسان يمضي على غلوائه حتى تبلغ السخرية منه مداها فيأتيه الموت من كل مكان « ففي ظلام الليل ينادي الأخ أخاه، والأم ابنها، والزوج زوجته، والمحب حبيبته، وعندما تتمازج أصواتنا وتتعالى إلى كبد الفضاء، يقف الموت هنيهة ضاحكا منا مستهزئا بنا، ثم يسير محدقا إلى الأفق البعيد»[٤].

أليست هذه هي الحقيقة، ومع هذا فإذا ذكر – أي إنسان – بالموت في موعظة الموت

---

(١) زكريا إبراهيم : المصدر السابق ص٤٣٨.
(٢)عبد الرحمن بدوي : دراسات في الفلسفة الوجودية ص٨٩.
(٣) الماوردى : أدب الدنيا والدين ص٢٢٠.
(٤)جبران خليل جبران : العواصف ص٤١٨ (ضمن الأعمال الكاملة).

أو حيث يطل عليه من مكان قريب، فما أسرع ما ينسى حين ينجلي عنه كل ذلك، ويعود سيرته الأولى فينغمس إلى النخاع فيما كان قد آلى على نفسه ألا يعود إليه.

نراع لذكر الموت ساعة ذكره ونغتر بالدنيا، فنلهو ونلعب [1].

٧- الاستسلام النهائي للموت:

إذا كان تذكر الموت سياج أمان، فإن نسيانه في أكثر الأحيان ضرورة أي ضرورة. لأن في هذا النسيان المؤقت العزاء لمأساة الإنسان على هذه الأرض، والبلسم الشافي لجرحه العميق، لاسيما في فتوة الشباب، ونضارة العمر.

أما إذا امتدت الرحلة، وأوغل الإنسان في سني العمر، وبعد عن شاطئ الأمان – إن كان هناك شاطئ أمان – فإن الموت يتحول خاطرا ملحا يهمس بالنهاية الوشيكة؛ باقتراب أفول النجم، وانطفاء المصباح؛ بل ناقوساً لا يكاد يكف عن الرنين في صحراء العمر التي أوشكت أن يأتي الجدب والجفاف على آخر نبتاتها. هنا تستيقظ الذكرى بكل آثارها المادية والمعنوية، وينصرف الفكر إلى رحلة مستغلقة الأبعاد، كثيرة الدروب، لا يدري إلا الله عن ماذا ستسفر أو إلى ماذا ستؤول.

هنا يستسلم الإنسان، بعد أن نفذت ذخيرته، وألقى سلاحه، كما استسلم ملايين من البشر قبله، وكما يستسلم ملايين آخرون بعده، حتى الفراعين والطغاة، ولا أقول اللصوص والقتلة، ويصور «ديورانت» صاحب قصة الحضارة هذا الاستسلام أصدق تصوير، إذ يقول: «هاهنا رجل شيخ على فراش الموت يزعجه أصدقاء لا حيلة لهم ...على هذا المعبر مر الشباب بكل آماله ومحاولاته. وعلى هذا المعبر اجتازت الرجولة بكل عذابها وعملها. وعلى هذا المعبر مرت الصحة والقوة والمنافسة والبهجة ... مرت سبعون عاما، فنما من حيوان إلى إنسان قادر على البحث عن الحقيقة، وخلق الجمال، ولكن المنية قد أنشبت فيه أظفارها، فسممه الموت وخنقه، وجمد دمه، وقبض قلبه، وفجر مخه، وحشرج حلقه – لقد انتصر الموت» [2].

---

(١) ديوان أبي العتاهية ص٤٨.

(٢) ول ديورانت: مباهج الفلسفة جـ٢ ص٣٠٦.

الفصل الثاني

حتميـــــة المــوت

الفصل الثاني

حتمية المـــوت



أولاً: في القرآن الكريم:

١- قانون الموت:

حتمية الموت، قضية بينة بنفسها. لكن لا يفوتنا أن ننظر كيف عالجها القرآن الكريم، الذي هو تنزيل من لدن حكيم حميد، وكيف جعلها حجر الزاوية في بناء وعي بالحياة سليم، يهدي إلى الرشد، ويقوم من الزيغ ويقود إلى صلاح البشرية بعامة:

في البدء كان الله ولا شيء معه، هو الأول والآخر والظاهر والباطن: «الأول فليس قبله شيء، والآخر فليس بعده شيء، والظاهر فليس فوقه شيء والباطن فليس دونه شيء، الأول والآخر مستغرقا كل حقيقة الزمان، والظاهر والباطن مستغرقا كل حقيقة المكان»[1]. وهو سبحانه خالق كل شيء، وله ملك كل شيء، وإليه تصير الأمور: الحركة والسكون، الفرح والحزن، الضحك والبكاء، الموت والحياة، قبل أن توجد كل مادة، وبعد أن وجدت، لا تسود إلا قوانينه تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولقد أعطانا أبو البشرية نموذجا حياً، ومثالا كاملا للاستسلام المطلق لله وهو يعلن في بداية الوجود الإنساني على ظهر هذا الكوكب ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وإذا الكون كله ملكه وملكوته سبحانه يصرفه كيف يشاء؛ بإرادته المخصصة ومقدرته المبدعة، بقوانينه الإلهية المحكمة التي نعرف بعضها ونجهل معظمها ومن بين هذه القوانين «قانون الموت» قدَّره سبحانه وجعله ضربة لازب لكل حي سواه في هذا

(١) في ظلال القرآن جـ٢٧ / ٧١٨.

الكون؛ «فقانون الموت» من أهم السمات المميزة للكائنات الحية التي تعيش على ظهر هذا الكوكب الصغير، وما عساه أن يكون ثم من حياة على الكواكب الأخرى - «كل شيء هالك إلا وجهه»- والإنسان ليس استثناء - ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠] حتى لقد خيل لبعض العجلى أن ما سوى الموت في هذه الحياة ليس إلا لمعة برق أو بخار ماء ما أسرع ما يتلا شيء فصاح في جزع من هول ما لاح له: «لدوا للموت وابنوا للخراب».

ويصور الله سبحانه، قصر الحياة بهذه الصورة السريعة المعبرة: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥]. فإذا شريط الحياة ينتهي كله في هذه الجمل القصار، وفي هذه المشاهد الثلاثة المتتابعة: «ماء أنزلناه من السماء» فاختلط به نبات الأرض«و» أصبح هشيما تذروه الرياح». ألا ما أقصرها حياة »![1].

ولكن هذه الحياة القصيرة الأمد وسنيها القليلة العدد - إذا أخذت بمنظور فردي - تطول وتطول بمقدار ما يطول عمر البشرية كلها، إذا أخذت بهذا المنظور الكلي، وأنت واجد مجتمعات وحضارات، لا تكاد تنهار هذه حتى تقوم تلك.

وكما تطوَّرت البشرية - رغم الموت - تطورت أنواع الحياة الأخرى على ما تخللها من تغير واستحالة، وموت وفناء، بل إن الأرض نفسها لتموت وتحيا والله وحده - على كل حال - هو المحيي والمميت في الحقيقة؛ وإن بدت لنا من وراء ذلك علل وأسباب: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤] وقد تكرر هذا المعنى (إحياء الله سبحانه للأرض بعد موتها) في السور الكريمة: (النحل الآية ٦٥، العنكبوت الآية ٦٣، الروم الآية ١٩-٢٤-٢٠، فاطر الآية ٢٩، الجاثية الآية ٥، الحديد الآية ١٧).

وكما تموت الأرض وتحيا، تموت القرى والبلاد وتحيا، يقول سبحانه: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ

(١) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ص١٠٦.

عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ.. ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]، ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ﴿طَهُورًا ۞ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [الفرقان: ٤٩]، وتكرر ذلك في سور (الزخرف الآية ١١ – ق الآية ١١ – الأعراف الآية ٥٧ – الروم الآية ١٩) وفعل الإحياء – معجزة بحد ذاته – مما لا تملكه يد البشرية: « إنما هي يد الله التي تجري المعجزات وتبث روح الحياة في الموات »[1].

٢ – موت الإنسان:

وبعد هذا التعميم الشامل، عن جميع الكائنات الحية، وخلاله، يتحدث القرآن الكريم بشيء من التخصيص: فيتناول النفس البشرية، مؤكِّدا على وجودها مصاحبة للجسد، وأن الموت – لا محالة – واقع عليهما؛ بمعنى أنها تغادر الجسم الذي سكنته إلى مستقرها في الملكوت الأعلى (وهذا هو موتها) ويعود الجسم رويداً رويداً سيرته الأولى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥]

﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

﴿قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]... فجميع النفوس البشرية – بنص القرآن الكريم – أسيرة قانون الموت، بلا تخصيص أو تمييز وربما يكون هذا المعنى أوضح، حين تبدأ مرحلة التخصيص، بالحديث عن النفس الواحدة، من خلال قضية كلية موجبة، فيعم الفعل كل النفوس: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [لقمان: ٣٤].

هكذا تتكرر الآيات القرآنية بغية استقرار هذه الحقيقة البسيطة الصعبة في النفس

(١) في ظلال القرآن جـ٢٣ ، تفسير سورة يس ص٢٣.

البشرية: «حقيقة أن الحياة في هذه الأرض موقوتة، محدودة بأجل ثم تأتي نهايتها حتما»[١].

«هذا هو الناموس الذي يحكم الحياة، وهذه هي السنة التي ليس لها استثناء.. إنه الموت الكالح نهاية كل حي، وعاقبة المطاف لرحلة الإنسان القصيرة على الأرض»[٢].

ثم تنتقل الآيات الكريمة في هذا الصدد إلى دائرة أقل اتساعا لكي تخصص نفسا بذاتها لا تتجاوز نفوس الرسل والأنبياء، الذين هم المنارة الهادية والأسوة الحسنة، والمثل العليا للبشر تأكيدا لمبدأ المساواة بين الجميع؛ فلا تمييز ولا استعلاء، فالكل أمام الموت سواء.

هذا أبو الأنبياء إبراهيم، يؤمر أن يقول بكل الإقرار والتسليم المطلق فيما تنص الآية الكريمة: ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٣].

وهذا حفيده من ابنه إسحاق يسجل القرآن الكريم مشهد لحاقه بجناب ربه الكريم: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾[٤]وقد نستطيع أن نصوغ من الآية قياسا من الشكل الثالث:

كلنا يعقوب (أو كل إنسان يعقوب) من حيث البشرية، ويعقوب صائر إلى الموت، فكلنا (أو كل إنسان) صائر إلى الموت.

ذلك أن حضور الموت معناه دنوه، وظهور علاماته وأماراته على الإنسان [٥]. ويجري مثل هذا القياس في كل مواطن خص فيه بالموت نبي.

وتتابع الآيات فتتحدث عن سليمان وما خصه الله به من الملك العريض والصروح الممردة وتسخير الجن والطير والريح، فهل أبعد ذلك كله مجتمعا سهم الموت قيدة شعرة حين صوب إلى مقتل

---

(١) في ظلال القرآن جـ٤ / ١٧٩.
(٢) في ظلال القرآن جـ١٧ / ٥٣٢.
(٣) سورة الأنعام الآية ١٦٢ . هذا على سبيل التعميم إذ إن هذا الأمر موجه لجميع الرسم والأنبياء.
(٤) سورة البقرة الآية ١٣٣ .
(٥) تفسير النسفي جـ١/ ٩٢.

في سليمان؟ هذا هو القرآن الكريم يجيب: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾[1].

وروح الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم «هذا المسيح عيسى الذي كان آية للعالمين: ميلاده معجزة، وفداؤه معجزة، هو الآخر ينضوي تحت لواء الموت، فيقر منذ بداية مولده بحتمية الموت ﴿وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [2].

ثم نأتي إلى خاتمة المطاف: خاتم النبيين، والرحمة المهداة للعالمين فنلحظ خطاب القرآن المتكرر له بشأن قانون الموت الساري على البشر أجمعين بل قانون الفناء لكل حادث وأن كل ماله بدء فله نهاية[3]، والرسول ﷺ مخلوق حادث بعد عدم؛ يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [4].﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [5] ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾[6] ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[7].

«إن الموت نهاية كل حي، وهو حق على البشر، وأنت يا محمد ميت كما أنهم ميتون، لأن ما وجد على ظهر هذه البسيطة وجد للفناء، والبقاء والخلود لله وحده»[8].

٣- الموت واجد ضالته في كل مكان وزمان:

من اللفتات القرآنية المستمرة تأكيده على مظاهر حتمية الموت، وأنه واجد ضالته في كل مكان، وكل زمان، ومن كل عمر وجنس ولون. تستوي الأرض والفضاء، والسفر والإقامة، وتهدم الشيخوخة، وميعة الصبا، وبراءة الطفولة ونضارتها، إذا حم الموت، فلا مفر.

---

(١) سورة سبأ الآية ١٤.
(٢) سورة مريم الآية ٣٣.
(٣) في ظلال القرآن جـ١٧ ، سورة الأنبياء ص٥٣٢.
(٤) سورة الرحمن الآية ٢٦.
(٥) سورة الزمر الآية ٣٠.
(٦) سورة الأنبياء الآية ٣٤.
(٧) سورة آل عمران الآية ١٤٤.
(٨) في ظلال القرآن جـ٢٤ ، تفسير سورة الزمر ص١٣٩.

والقرآن الكريم بروعة بيانه الأخاذ يرسم لنا هذه الصورة الرهيبة صورة انقضاض الموت على فريسته، لا يثنيه عنها شيء، مهما أوغلت في التصور والخيال ومهما تقلبت بها الظروف والأحوال. وتترى الصور هكذا:

- ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[1].

فالموت محيط بالإنسان مهما تفنن في التحصن والاختفاء؛ حتى لكأنه هو الذي كان يخاطبه النابغة الذبياني إذ يقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع[2]- ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾[3].

«إن هناك أجلا مكتوبا لا يستقدم ولا يستأخر، وإن هنالك مضجعا مقسوما لا بد أن يجيء إليه صاحبه فيضجع فيه»[4].

- «قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم»[5].

- «قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل»[6].

ففي هاتين الآيتين الكريمتين حديث صريح عن الفرار من الموت، فنحن بين الموت والقبر بمرقب من هذا، وعلى موعد من ذاك؛ ولا بد مما ليس منه بد.

إن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر جميعا من حيث ندري أو لا ندري؛ والموت أحد هذه الأقدار الخافية التي تصنع نهاية الحياة من حيث نتوقع أو لا نتوقع ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[7]. هكذا تبدو الحقيقة ساطعة جلية للعيان: أن الموت متواجد معنا في كل لحظة وكل دقيقة

(١) سورة النساء الآية ٧٨.
(٢) الثعالبي : خاص الخاص ص٩٦.
(٣) سورة آل عمران.
(٤) في ظلال القرآن جـ٤/ ١١٢.
(٥) سورة الجمعة الآية ٨.
(٦) سورة الأحزاب الآية ١٦.
(٧) سورة لقمان الآية ٣٤.

ومع كل شهقة من شهقات النفس البشرية.

وليس في وسع أحد أن يجحد حتمية الموت، أو شمول سلطانه، لأنها بداهة العقول الأولى، حتى أن كبار الملاحدة، وجاحدي الربوبية نفسها إنما ينصب إنكارهم هنا على الإحياء بعد الموت، لا على الموت نفسه – وهو قولهم – فيما يحكى عنهم رب العزة:

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾(١).

﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾(٢).

«فالحياة في نظرهم هي هذا الشوط الذي يرونه في الدنيا رأي العين جيل يموت، وجيل يحيا فالدهر إذن (فيما يعتقدون) هو الذي ينهي آجالهم ويلحق بأجسامهم الموت فيموتون»(٣).

٤- إسناد حدث الموت للقدرة الإلهية:

لا شك أن هؤلاء المنكرين كذبوا، فالمحيي والمميت هو الله وحده لا الدهر ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾(٤) ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٥) ﴿تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾(٦).

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾(٧) ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ۞ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾(٨).

وفي القرآن يسند الفعل أحيانا إلى الله مباشرة، فهو الفاعل القاهر خالق كل شيء

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٣٧.
(٢) سورة الجاثية الآية ٢٤.
(٣) في ظلال القرآن جـ٢٥ ، تفسير سورة الجاثية ص٣٩٢.
(٤) سورة طه الآية ٥٥.
(٥) سورة آل عمران الآية ٢٦.
(٦) سورة آل عمران الآية ٢٧.
(٧) سورة الواقعة الآية ٦٠.
(٨) سورة النجم الآية ٤٤.

الفعال لما يريد – القوة المؤثرة حقيقة في الوجود، المسيطرة أولا وأخيرا [١]، كما رأينا في الآيات السابقة.

وأحيانا يسند الفعل إلى قوى سببية قد نسميها «الملائكة» فقد وكل الله ملائكة بكل الأشياء المخلوقة الظاهرة للعيان والخفية، فكل حركة في العالم فسببها الملائكة، وحركتهم طاعة الله بأمره وإرادته [٢].

فالرب تعالى يدبر أمر العالم، وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة ومن هذه الطوائف، طائفة مختصة بقبض الأرواح، إذا حان الأجل، فالله سبحانه هو « المدبر أمرا وإذنا ومشيئة، والملائكة هي المدبرات مباشرة وامتثالا»[٣].

ففي صدد الموت يقول المولى سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ﴾[٤].

ويقول: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [٥].

فالرسول الموكل بقبض النفوس وتوفيها هو «ملك الموت» الذي ينفذ المشيئة الإلهية[٦]. هكذا يعلمنا النص القرآني الكريم ويميزه لنا بهذا الوصف.

٥- التحدي بالموت:

ثم يبقى التحدي الكبير، تحدي الموت للإنسان، هذه المواجهة الصريحة بين طرفين، طرف قادر غلاب، وطرف ضعيف مغلوب. وبعبارة أخرى: الذي يصارع الموت، إنما يصارع أسبابه فيما يبدو لأنظارنا القاصرة، أما الموت نفسه فلا يجابه ولا يصارع، فإذا كان هذا موضع التحدي، فمن ذا في وسعه أن يقبله؟ إنه التعجيز المطلق الرهيب هكذا ترى الآيات البينات تطالب الإنسان – إن استطاع – دفع الموت، فإذا قال الرب تعالى: ﴿قُلْ

(١) محمد الزيني : ابن القيم ص٨٦.
(٢) ابن القيم : روضة المحبين ص٦١.
(٣) ابن القيم : أقسام القرآن ص١٠٢.
(٤) سورة الأنعام الآية ٦١.
(٥) سورة السجدة الآية ١١.
(٦) في ظلال القرآن جـ٧ / ٢٦٧ ، جـ٢١ / ٥١٦.

فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١]. خرست الألسنة، وطأطأت الرؤوس، ولا يبقى أمام الإنسان- مهما كان جبروته- إلا الاستسلام. ولا شيء إلا الاستسلام، ليس ثم اختيار: فهذا أروح للنفس، وأهدأ للخاطر، فعلى الإنسان أن يتيقن أنه حادث، وكل حادث فان، هكذا قدر عليه في الأزل، وعليه أن يذعن لقدر الموت قبل أن يراه.

٦- البقاء لله:

فالبقاء لله وحده، الواحد الأحد، واجب الوجود، وواهب الوجود: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[٢]. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾[٣] كل شيء زائل، وكل شيء ذاهب، المال والجاه، والسلطان والقوة والحياة والمتاع وهذه الأرض ومن عليها، وتلك السماوات وما فيها ومن فيها.وهذا الكون كله ما نعلمه منه وما نجهله.. كله.. كله.. هنالك فلا يبقى إلا وجه الله الباقي متفردا بالبقاء»[٤].هذه هي الحقيقة التي يجب أن تثبت وتستقر في عقول البشر جميعا بلا استثناء:﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[٥].

ثانيا: عند الشعراء:

لا شك أن الشعراء العرب قبل الإسلام وبعده، قد استرعت انتباههم بقوة، ظاهرة الموت، وربما أقض التفكير فيها مضاجعهم؛ ومن ثم عبروا بشعرهم تجاه هذا الحدث الخطير في حياة الإنسان.

لكن الحقيقة أنهم أطالوا الوقوف عند نقطة واحدة، عالجوها بعمق وإطناب أعنى «حتمية الموت» قالوا كثيرا فأجادوا، وعبروا عن قلق نفوسهم، وأرق ليلهم، وأحزان نهارهم، بألفاظ موحية، وصور مشتقة من البيئة، مع روعة المعنى، وابتكار الفكرة.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٨.
(٢) سورة الرحمن الآية ٢٦ ، ٢٧.
(٣) سورة القصص الآية ٨٨.
(٤) الظلال جـ٢٠ / ٣٨١.
(٥) سورة مريم الآية ٤٠.

أما ما رواء ذلك من طبيعة الموت، وماذا بعده؟ والحكمة الإلهية التي تقف وراءه، وما الحلول المطروحة لمواجهة الخوف من الموت، فقلما تطرقوا إليه إلا بصورة عرضية في سياق غير السياق وفي معالجات جزئية اقتضاها المقام.

وسوف نحاول في عجالة سريعة أن نستعرض هذا الموقف مستعينين ببعض النماذج من شعرهم.

١- امرؤ القيس:

نبدأ بشاعر ماجن مغامر اشتهر في صدر حياته بحياة اللهو والدعة، ومعاقرة الخمر، والعيش في أحضان الغانيات؛ وهو – على ذلك – تشغل فكرة الموت حيزا كبيرا من تفكيره، من حيث هو شاعر مرهف الحس، حاضر الخاطر، على درجة عالية من الوعي بأحداث مجتمعة، من منطلق أنه إنسان وثيق الوشائج بكل ما حوله من تجارب الحياة الحلوة والمرة، الجادة والهزلية فليس امرؤ القيس هذا، وفي نظر نفسه هو إلا ورقة – من ملايين الأوراق – في شجرة الحياة التي تتساقط كل يوم في مهب رياح الموت العاصفة، ثم تندثر في أرض الله الواسعة وتصير ترابا: استمع إليه إذ يقول:

إلى عرق الثرى وشجت عروقي ... وهذا الموت يسلبني شبابي
ونفسي، سوف يسلبها وجرمي ... فيلحقني، وشيكا، بالتراب[١]

وقد تقترن فكرة الحتمية « حتمية الموت » بتفهمه لكرور الأيام والليالي، فما هو بعيد في الزمان سوف يصبح حاضرا نعيشه، وهنا يبرز الموت مع حتميته في إطاره الخاص، فهو ليس غربة في المكان، ولكن غربته من نمط فريد، فمن يذهب لا يعود، وفرقته لا يلتئم لها شمل أبدا:

أجارتنا ما فات ليس يؤوب ... وما هو آت في الزمان قريب
فليس غريبا من تناءت دياره ... ولكن من وارى التراب غريب[٢]

(١) ديوان امرئ القيس ص٧٢.
(٢) ديوان امرئ القيس ص٧٩.

وليس حتما أن يكون قوله: «ما فات ليس يؤوب» مما ينم عن إنكاره البعث شأن معظم العرب قبل الإسلام، ولكنه احتمال قائم، ولا يفوت امرؤ القيس أن يلتمس السلوى في ديمقراطية الموت، ونزوله بساحة الجميع: سواء الفقير والغنى،الأحمق والعاقل كمنجل يحصد أعناق البشر.

تلك المنايا فما يبقين من أحد يكفتن حمقى وما يبقين أكياساً[1].

٢- طرفة بن العبد[2]:

وهذا شاعر آخر يشترك في كثير من الصفات مع امرئ القيس؛ إذ إنه عاش حياة اللهو والبطالة وصورته المرسومة من خلال شعره أنه: تمتع بيومه، وشرب كأس المتعة حتى الثمالة دون أن يفكر فيما يحمله له الغد، من منطلق إيمانه، أن الغد غير مأمون، وأن الموت يترصد خطانا فحياته شبيهة في كثير من نواحيها بما يعزى خطأ إلى فلاسفة الأبيقورية[3]من أنهم عاشوا حالة من « الأتراكسيا Atraxi» أي التحرر من القلق والخوف لبلوغ اللذة القصوى، وتجاهل أحداث الحياة وأحزانها، والتمتع بالمتاح منها مهما كان ضئيلا.

في أشعار طرفة بن العبد فكرة مؤداها: أن أيامنا مهما بدت عريضة فهي قليلة، وهي أبدا تتناقص وتضمحل يوما بعد يوم، كالكنز في يد أخرق لا يتنبه إلى قيمته إلا عندما يضيع منه. وعنده أن موقف الإنسان من الموت، كموقف الحيوان المشدود إلى حبل طويل يتيح له حرية الحركة والتصرف إلى حد ما، وبهذا الحبل نفسه يقاد في الوقت المناسب إلى حتفه.

من هذا الموقف المتفهم لقصر الأجل، وحتمية الموت، انطلق الشاعر يعب من لذة

---

(١) ديوان امرئ القيس ص١٢٠ ، يكفتن :يمتن.الأكياس : الواحد كيس ضد الأحمق.

(٢) ولد في البحرين في بيت كريم الأصل ، ونشأ يتيماً فانصرف إلى اللهو ومعاقرة الخمر ، فأنفق ماله وقد مدح ملك الحيرة عمرو بن هند ويقال إنه قتله سنة ٥٦٤ م وقد تميز بالذكاء وسرعة الخاطر. ترجمته في (بروكلمان : تاريخ الأدب العربي جـ/ ٩٢) ، طه حسين : حديث الأربعاء الفاخوري :تاريخ الأدب العربي ص ٩٧

(٣) تنتسب الفلسفة الأبيقورية إلى مؤسسها أبيقور الذي ولد بجزيرة ساموس عام ٣٤١ق.م وتوفى عام ٢٧٠ق.م. (يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص٢١٤. أميرة مطر : الفلسفة عند اليونان ص٣٧٩).

يومه، ضاربا من نفسه المثل لمن شاء، قبل أن ينقضي اليوم إلى غد مجهول العواقب، وظل ينحى باللائمة على من يمنعه من شهوة اللذات، والعب من متع الحياة، ما دام الخلود فيها وهم وسراب. هاهو ذا يبشر بمذهبه المنحل:

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدى

أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد

لعمرك أن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخى وثنياه باليد[1]

فإن لم يكن التمثيل بالحبل المشدود، لا يوضح أبعاد الصورة، فالتمثيل بالمنقب الخارق، الذي يتبع خطوات الإنسان في كل مكان، فتطوى له المسافات ولا يحجبه صولجان بشر: إنه الناموس الإلهي الذي لا بد من النزول على حكمه:

لتنقبن عنى المنية إن الله ليس لحكمه حكم[2].

٣- كعب بن زهير[3]:

لهذا الشاعر بيت شعر في موضوعنا اشتهر كثيرا في الشعر العربي. ذلك أنه حينما جاء مسلما، واحتال للحصول على الأمان لنفسه من الرسول ﷺ، أنشده قصيدته المشهورة التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول[4]

فكان فيها هذا البيت السائر:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول[5].

---

(١) ديوان طرفة ص٣٢-٣٤.

(٢) المصدر السابق ص٨٣.

(٣) أبوه زهير بن أبي سلمى، من فحول الشعر في الجاهلية، تلقى الشعر عن أبيه وبرع فيه، ثم دخل الإسلام بعد فتح مكة وحسن إسلامه. ترجمته في: بروكلمان: تاريخ الأدب العربي جـ١ / ١٥٦، شوقي ضيف: العصر الإسلامي ص٨٥، حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي ص٢٢٣.

(٤) الأغاني جـ١٧ / ٨٧، تحقيق علي البجاوي، طبعة الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٠م.

(٥) شوقي ضيف: المصدر السابق ص٨٦.

فجمع فيه أو كاد- بإيجاز شديد، وكلمات منتقاة، وصور بلاغية- كل أشعار الشعراء، وأقوال الحكماء، وتأملات الفلاسفة- حول حتمية الموت.

إنه يبدأ بقضية كليه تشمل كل من ولد أو سيولد في هذه الحياة العاجلة إذ الأنثى هنا شاملة لأنثى الإنسان وغيره من سائر الحيوان: هذا المولود مهما عاش في الدنيا، وتمتع بالصحة – إن تمتع، وامتد به الأجل – إن امتد وطالت سلامته – إن طالت.. هذا الإنسان يوماً ما، معلوماً ومحدداً وأكيداً، سوف يوضع جثة هامدة على تلك « الخشبة » المخصصة لحمل الموتى ثم يحمل على الأعناق أو غير الأعناق، ويذهب به إلى مستقره الأخير.

وهذه صورة البشر جميعا.

٤- مالك بن الريب[١]:

لمالك بن الريب وقفة تستدر الدمع، وتستفز الفؤاد،وتدعو الإنسان لمشاركته في أحزانه، والسماع لتأوهاته الأخيرة، ومسح دموعه وهي تسيل على خده.

فهو يقف وجها لوجه أمام هذا القادم غير المرغوب فيه، والزائر المرعب يبكي نفسه، مصورا طبيعة الموت، موصيا أصحابه بما يفعل به بعد صعود روحه إلى بارئها، عارضا من خواطره الثكلى صوراً حزينة من ذلك الجزع الضارع الذي يتملك بعض النفوس المرهفة في مثل حاله هذه. فهو يطلب منهم تهيئة السدر والكفن، ويرجوهم أن يوسعوا في لحده بعد أن يحفروه برماحهم الصلبة.

وإذا كانت هذه القصيدة زفرة حارة، ودمعة ساخنة على خد مالك بن الريب، إذ تميزت بخصوصية واضحة، وتجربة فريدة عاشها الشاعر، إلا أنها ترسم صورة دقيقة للنفس البشرية، وأخص أحاسيسها، وتعبر عن جميع المشاعر حينما يقف الإنسان – أي إنسان بلا تحديد في الزمان والمكان – في خضوع مطلق، واستسلام كامل تحت جناح الموت الرهيب.

---

(١) هو مالك بن الريب بن حوط بن قرط بن ربيعة ، وكان من أجمل العرب جمالا وأبينهم ، تاب عن قطع الطريق وانضم إلى جيش سعيد بن عفان ، حتى قتل بخراسان ، على اختلاف الروايات في ذلك (ذيل الأمالي والنوادر ص١٣٥ . الأغاني جـ٢٢ / ٢٨٦).

يقول: وقد لطمه الموت لطمة ما بعدها لطمة، ولا شفاء.

تذكرت من يبكي على فلم أجد ... سوى السيف والرمح الرديني باكيا
فيا صاحبي رحلي دنا الموت ... فانزلا برابية أني مقيم لياليا
أقيما على اليوم أو بعض ليلة ... ولا تعجلاني قد تبين شانيا
وقوما إذا ما استل روحي فهيئا ... لي السدر والأكفان عند فنائيا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعي ... وردا على عيني فضل ردائيا
ولا تحسداني بارك الله فيكما من ... الأرض ذات العرض أن توسع إليا [1]

٥- أبو العتاهية [2]:

هذا رجل زاهد، مر بتجربة حية، حولته من طريق المجون والهوى إلى طريق الاستقامة السوي، فعزف عن المحرمات، وأقبل على التمدح بالزهد والتهوين من شأن الدنيا، والتخويف من بغتات الموت.

لقد تأمل أبو العتاهية كثيرا، وأوغل في تعمق فكرة الموت، حتى لقد احتلت مساحات كبيرة من شعره، وأصبح ديوانه في معظمه كأنه مرثية طويلة للكرة الأرضية. ومن ثم فقد قدم لنا صوراً لحتمية الموت تتعدد في قصائده قصيدة بعد أخرى، ويدور معظمها حول فكرة قصر الحياة، وأنها ليست إلا قنطرة إلى عالم آخر، لا بد من قطع مسافاتها، والانتقال عنها برمتها.

ويتميز شعر الموت عند أبي العتاهية؛ بصدق النبرة، وجدة الخاطر وروعة الصورة، ووضوح الفكرة، حتى لنكاد نلمس الدمعة وهي تتساقط على خده ونسمع وجيب قلبه المضطرب، ونرى حزن الأيام الذي تراكم على منكبيه، فتركته شيخاً مهموماً محطماً، يائساً من الدنيا، يدعو الناس إلى اليقظة من غفلتهم كنبي نبذه قومه، وصائح في البرية يصيح: يا ابن الأرض، أصغ إلي،الق عنك أغلالها سوف تمضي كما مضت أوائلك، وسوف تتحول كما تحولوا إلى تراب ......!

(١) القالي: ذيل الأمالي والنوادر ص١٣٦، والسدر: ورق من شجر النبق يغسل به الميت.
(٢) ديوان أبي العتاهية ص٣٤.

يتحسر أبو العتاهية على العمر الذي مضى وضاع، ويندب أيام القوة والفتوة التي ولت واندثرت،كل ذلك في غير طائل؛ والموت حثيث في الطلب، وربما أزفت الآزفة، وأظلت النهاية:

مضى عنـــي الشــباب بغـــير ودى فعنـــد الله أحتســـب الشبابـــا
ومـــا مـــن غايـــة إلا المنايـــا لمـــن خلقـــت شـــيبته وشـــابا[١]

ويتأمل أبو العتاهية حصار الموت المحكم حول البشرية العاجزة، فلا يجد لها مهربا وحيلة.

والإنسان إذا حان حينه، أعيته الوسائل في مواجهة الموت، فلا فكاك منه ولا حرية من قيده الثقيل، ولا دواء يشفى من دائه، الذي أعيى أعظم الأطباء فكل الحصون مفتحة له أبوابها، وكل الكئوس مترعة بمذاقه المر الكريه، فليشرب الشارب طوعا أو كرها، كما فعل سقراط الحكيم، وكما فعل غيره من الناس ويفعلون، حتى الملوك والأباطرة، والطغاة والجبابرة، فليكونوا عظة وعبرة، وعلينا أن نتقدم إلى طريق الموت غير هيابين، وننحى الآمال الكاذبة التي قد تعشش في بعض الرؤوس الفارغة أو المخدوعة. يقول أبو العتاهية في أبيات متناثرة، من قصائد عدة:

حيـــل ابـــن آدم في الأمـــور كثـــيرة والمـــوت يقطـــع حيلـــة المحتـــال[٢]
يهـــرب المـــرء مـــن المـــوت وهـــل ينفـــع المـــرء مـــن المـــوت الهـــرب[٣]
المـــوت حـــوض لا محالـــة دونـــه مـــر مذاقتـــه كريـــه مشربـــه[٤]
يعـــز دفـــاع المـــوت عـــن كـــل حيلـــة ويعيـــا بـــداء المـــوت كـــل دواء[٥]
كـــم مـــن ملـــوك مضى ريـــب الزمـــان بهـــم فأصبحوا عـــبرا فينـــا وأمثـــالا[٦]

---

(١) ديوان أبي العتاهية ص٣٤.
(٢) ديوان أبي العتاهية ص٣٢٧.
(٣) المصدر السابق ص٤٣.
(٤) المصدر السابق ص٥٩.
(٥) المصدر السابق ص١٣.
(٦) المصدر السابق ص٣٤٣.

هو الموت الذي لا بد منه فلا يلعب بك الأمل الكذوب[1]

وفي قصيدة أخرى يعبر أبو العتاهية عن الأفكارنفسها؛ ولكن بصور جديدة مبتكرة: فالليل قريب من النهار، والآخرة ملاصقة للدنيا، والموت يجاور الحياة، والفناء يعقب البقاء، ودورة الزمان لا تني ترمي بسهامها من تريد فلا تخطئ البتة، والإنسان كالحائر بين كل هذا يمنى نفسه بطول البقاء، على ما قد يكون فيه من ألم ومرارة، يصطنع الصبا اصطناعا من حطام الشيخوخة ويداري وهن العظم، واشتعال الرأس شيبا ... و ... والموت الرابض في كل مكان يفترس الصبا والشباب والكهولة والشيخوخة، وأمنا الأرض فاردة ذراعيها تستقبل أبناءها فلها أيضا نصيب وأي نصيب:

إن الفناء من البقاء قريب إن الزمان، إذا رمى لمصيب

وأراك تلتمس البقاء، وطوله لك مهرم، ومعذب، ومنيب

ألححت في طلب الصبا وضلاله والموت منك، وإن كرهت قريب

والموت يرتصد النفوس، وكلنا للموت فيه، وللتراب نصيب[2].

وربما وقف أبو العتاهية متسائلا في شعره عن آبائه وأجداده، وآباء أجداده، أين ذهبوا؛ يتساءل عن البشرية الماضية: أتت إلى الحياة وعاشت، وتمتعت أو تعذبت ثم ذهبت عابرة من شاطئ المعلوم إلى شاطئ المجهول؛ ثم يتجه إلى نفسه فيلقي عليها باللائمة، لأنها تعلقت بأمل السلامة الكاذب، وتظل كاللاهية تغمض العين عن هذه النذر: عن هذا التاريخ الطويل من العذاب الذي طالما استحالت فيه البسمات إلى دموع، وصيحات اللذة إلى صرخات الألم. إن النفس البشرية تخادع ذاتها، وترى ركب الفناء يمضي ولا تريد أن تعتبر: بدءا بالجنين في بطن أمه، وانتهاء بالشيخ في أرذل عمره، ومروراً بالرضيع على صدر أمه، والغلام اليافع في ملاعبه، والشاب في مراتع لهوه والكهل في سنى نضجه، إنها ديمقراطية الموت! وليس على الموت من مستعتب. في هذا يقول أبو العتاهية:

(١) المصدر السابق ص٣٦.

(٢) ديوان أبي العتاهية ص٤٠-٤١.

«يا نفس أين أبي، وأين أبو أبي وأبوه؟ عدى، لا أبالك واحسبي أفأنت ترجين السلامة بعدهم، هلا هديت لسمت وجه المطلب.

قد مات ما بين الجنين إلى الرضيع إلى العظيم إلى الكبير الأشيب[(١)]».

وقد اشتهر أبو العتاهية بوعظه للخلفاء،لا سيما الرشيد وابنه المأمون فقد كان محببا إليهم مقربا إلى قلوبهم،ومما وعظ به الرشيد:

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس وإن تمتعت بالحجاب والحرس فما تزال سهام الموت نافذة في جنب مدرع منها ومترس.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس[(٢)].

في اللوحة السابقة يرسم أبو العتاهية صورة الموت لا يأمنة الإنسان لحظة واحدة، فقد يكون كامناً بين طرفة عين واخرى أو شهقة وزفرة، ومهما تحصنت أيها الإنسان فالدروع لا تجدي، والتروس لا تفيد، لأن سهام الموت سهام نافذة لا يردها شيئ.فلا تأمل في النجاة، ولم تأخذ بأسبابها، وهل تجري السفينة على ظهر لا يحملها؟

ولما سأله المأمون أن يسمعه أحسن ما قاله عن الموت أنشده:

أنساك محياك المماتا فطلبت في الدنيا الثباتا
أوثقت بالدنيا وأنت ترى جماعتها شتاتا
وعزمت منك على الحياة وطولها عزماً بتاتا
يا من رأى أبويه فيمن قد رأى كانا فماتا
هل فيهما لك عبرة أم خلت أن لك انفلاتا
ومن الذي طلب التفلت من منيته ففاتا
كل تصبحه المنية أو تبيته بياتا[(٣)]

(١) ديوان أبي العتاهية ص٤٥.
(٢) ديوان أبي العتاهية ص ٢٣٠.
(٣) ديوان أبي العتاهية ص٢٩٠

وهذه صورة رائعة رسمها أبو العتاهية لحتمية الموت، وحصاره للنفوس كل آونة.

الموت لا والداً يبقي ولا ولداً ولا صغيراً ولا شيخاً ولا أحداً
للموت فينا سهامٌ غير مخطئة من فاته اليوم سهماً لم يفته غداً[١]

وإليك هذه الصورة الأخيرة التي رسم فيها أبو العتاهية مأساة البشرية، فهي تلد من لا بد له من الموت، فكأنها تلده من أجله، وتبنى ما لا بد له من الخراب، فكأنها تبنيه من أجله الكل زائل وفان، ولذا يتعجب أبو العتاهية من سعي الإنسان للبناء وعمارة الدنيا. ثم يتجه بالخطاب إلى الموت: أيها الموت لا مهرب منك فإنك إذا أتيت لا تجامل أحدا فترخي له العنان ولو قليلا، ولا تظلم أحداً فتنقصه من عمره ولو ذرة لأنك رسول العناية الإلهية.

لدوا للموت، وابنوا للخراب فكلكموا يصير إلى تباب
لمن نبني، ونحن إلى تراب نصير، كما خلقنا من تراب
ألا يا موت! لم أر منك بدا أتيت، وما تحيف وما تحابي[٢]

٦- أشعار متفرقة:

ونختم الحديث عن حتمية الموت في الشعر العربي، بهذه الوقفات الشعرية، والتأملات الفلسفية التي تفتقت عنها عقول الشعراء.

ولنستمع لهذا الحوار الفلسفي الذي يعبر عن إحساس الإنسان المخيف تجاه الموت، وشعوره المستمر أنه حالة طارئة داخل الكون وسوف يمضي إلى بعيد.

تحكى الروايات[٣]، أن عدي بن زيد، صحب النعمان بن المنذر في خروجه يوما للهو، بعد أن اجتمع الخدم والحشم، وحضرت كل أسباب المتعة فلما سار الركب تحدوه الآمال في قضاء يوم مترع بالمسرة واللذة، قال عدي للنعمان وهو يبصر شجرة وحيدة في الفلاة: أتدري ما تقول هذه الشجرة؟ فرد عليه النعمان وهو يلهو بفرسه، مستخفاً بسؤاله وما

(١) ديوان أبي العتاهية ص ١٣٠
(٢) ديوان أبي العتاهية ص٤٦.
(٣) المبرد: الكامل جـ٢ / ٩١ ، ولعدي بن زيد ترجمة مطولة في خزانة الأدب للبغدادي جـ١ / ٣٨١-٣٨٦

تقول؟ قال عدي – من شعر نفسه – إنها تقول:

مـــن رآنـــا فليحـــدث نفســـه أنـــه مـــوف عـــلى قـــرن زوال
وصروف الـــــدهر لا يبقـــــى لهـــا ولمـــا تـــأتي بـــه صـــم الجبـــال
رب ركـــب قـــد أنـــا خـــوا حولنـــا يمزجـــون الخمـــر بالمـــاء الـــزلال
عمـــروا الـــدهر بعـــيش حســـن قطعـــوا دهـــرهم غـــير عجـــال
ثـــم أضـــحوا عصـــف الـــدهر بهـــم وكـــذاك الـــدهر حـــالاً بعـــد حـــال

إن الشجرة تكتب رسالة بليغة، لكي يقرأها من يطالع خضرتها، ويسر بمنظرها؛ أن يتذكر دائما أنه يعيش في دنيا زائلة، متقلبة الأحوال، تأتي بالنائبات أضعاف ما تأتي بالمسرات.

وفي هذه الرسالة تسخر الشجرة من أفواج الركبان السعداء – بادي الرأي – كثيرا ما نزلوا في كنفها، وتفيأوا ظلالها، وتذوقوا ثمارها، واحتسوا كئوس الخمر ممزوجة بقليل من الماء الزلال – وهو شعار أولئك العابثين الذين كانوا يعبُّون نعيم الأيام ولذاتها عباً – وفي غمضة عين تنقلب عليهم، وتشيح عنهم، وتعصف بهم عصفا، فتلقي بهم في لحد مظلم، فإذا هم أثر بعد عين، وهكذا الأيام تتغير من حال إلى حال.

وفي صورة أخرى من صور الشعر العربي يقول أمية ابن أبي الصلت:

ومن لم يمت عبطة يمت هرما للموت كأس فالمرء ذائقها[1].

نعم أيها الفيلسوف من لم يمت بعلة ظاهرة مات شيخا، فالموت كأس مر مذاقها وكلنا سوف نتجرعها.

والخليفة الرابع – من خلفاء المسلمين – يقف باكيا أمام موت فاطمة زوجته وابنة أعظم الناس متأملا مشهد البشرية إزاء الموت، فكل حبيبين إلى افتراق وكل مقيم إلى نزوح، ولا دوام إلا للواحد القهار. أصغ إليه كيف يقول:

(١) المبرد: الكامل جـ١ / ٣٤٣ (وترجمته في الأغاني جـ١٧ / ٣٠٣ وما بعدها بروكلمان: تاريخ الأدب العربي جـ١ / ١١٣).

لكـل اجـتماع مـن خليلـين فرقـة وإن الـذي دون الفـراق قليـل
وإن افتقـادي واحـدا بعـد واحـد دليـل عـلى ألا يـدوم خليـل [١]

هذا المعنى نفسه، والمعاني السابقة تكررت وتكررت في أشعار عربية كثيرة، نسوق منها نماذج مختصرة:

قالت ليلى الأخيلية ترثي حبيبها توبة:

فكل جديد أو شباب إلى بلى وكل امرئ يوما إلى الله صائر [٢]

وقال أبو ذؤيب الهذلي[٣](ت ٦٤٦م)، وهو يرثى أبناءه، بعد أن خاض تجربة موتهم؛فأحرقت قلبه وحطمت جسمه، وثكلت نفسه، وتركته، قلبا ملتاعا ودمعة حائرة في عين يتيم، وشبحاً هائماً يناجي الأحبة الذين مضوا وخلفوه وحيداً. بعد أن عاش وفياً لهم، وسدا منيعا يدفع عنهم غائلة الأيام وصروف الليالي، ثم هجم وحش الموت بأنيابه الكاسرة، فتركهم أشلاء ممزقة، فلا قوة تمنعه، ولا أحجبه تصرفه، ولا تعاويذ تصده، ولم يبق له إلا التوجع والأنين، وعتاب الأيام:

أمـن المنـون وريبهـا تتوجـع والدهر ليس بمعتب على من يجزع
ولقـد حرصـت بـأن أدافـع عـنهم فـإذا المنيـة أقبلـت لا تدفـع
وإذا المنيـة أنشـبت أظفارهـا ألفيـت كـل تميمـة لا تنفـع [٤]

وقال الفرزدق [٥](ت ١١٤هـ) يرثى وكيع بن أسود، أحد بني غداته بن يربوع:

(١) الكامل جـ٤ / ٣٠.
(٢) المصدر السابق / ٩٠.
(٣) هو خويلد بن خالد الهذلي النزاري، ممن أدرك الجاهلية ثم أسلم، سكن المدينة واشترك في الفتوح، وأدرك خلافة عثمان (البغدادي : خزانة الأدب جـ١/ ٤٢٢، حنا الفاخوري : تاريخ الفلسفة العربية ص٢٤٠، بروكلمان : تاريخ الأدب العربي جـ١/ ١٦٩).
(٤) الثعالبي : خاص الخاص ص١٠٤.
(٥) هو أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة الملقب بالفرزدق، ولد في البصرة في بيت أصل وشرف، لكنه نشأ فاسقاً، واتسمت حياته بالاضطراب (بروكلمان : تاريخ الأدب العربي جـ١/ ٢٠٩ حنا الفاخوري : المصدر السابق ص٢٨٢).

فصبرا تميم إنما الموت منهل   يصير إليه صابر وجزوع [١]

ويقول أبو نواس [٢](ت ١٩٨هـ):

ألا يا ابن الذين فنوا وبادوا   أما والله ما ذهبوا لتبقى [٣]

ومن قصيدة لأعشى باهلة رثى المنتشر بن وهب يقول:

عشنا بذلك دهرا ثم فارقنا   كذلك الرمح ذو النصلين ينكسر
لا يأمن الناس ممساه ومصبحه من   كل أواب وإن لم يأت ينتظر [٤]

ومن مرثية ابن مناذر (كان رجلا عالما مقدما، وشاعرا مفلقا، وخطيبا) يرثي عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفي:

أين رب الحصن الحصين   بسوراء ورب القصر المنيف المشيد
شاد أركانه وبوبه بابي حديد   وحفه بجنود
فرمى شخصه فأقصده الدهر   بسهم من المنايا سديد
ثم لم ينجه من الموت حصن   دونه خندق وبابا حديد
وملوك من قبله عمروا الأرض   أعينوا بالنصر والتأييد
وأرانا كالزرع يحصده الدهر   فمن بين قائم وحصيد
وكأنا للموت ركب مخبون   سراعا لمنهل مورود [٥]

***

(١) المبرد: الكامل جـ٤ / ٨٤.
(٢) ولد الحسن أبو نواس في الأهواز عام ١٤٠هـ وكانت طفولته معذبة، أخذ العلم من علماء البصرة، وحصل ثقافة واسعة، اتصل بالبرامكة وآل الربيع والرشيد واتسمت حياته باللهو والشراب والمجون. (حنا الفاخوري: المصدر السابق ص٣٨٧ وأيضا بروكلمان: تاريخ الأدب العربي جـ٢ / ٢٤).
(٣) المبرد: الكامل جـ٢ / ١٦.
(٤) المبرد: الكامل جـ٤ / ٦٦ وأيضا، أورد البغدادي في خزانة الأدب جـ١ القصيدة كاملة – مع شرح لها وبترتيب آخر لأبيات القصيدة.
(٥) المبرد: الكامل جـ٤ / ٦٣-٦٤.

الفصل الثالث

طبيعة الموت والسر فيه



الفصل الثالث
طبيعة الموت والسر فيه



تمهيد:

تساؤلات عن طبيعة الموت؟

كم نقف أمام الموت – هذا السر الرهيب – نتساءل عن سببه وعن طبيعته في حيرة: ما هذا الفاعل الكاسح الذي يلوي أعناقنا، ويذل كبرياءنا، ويضع أنوفنا حقيقة في الرغام، بل بأجسادنا كلها في حفر موحشة مظلمة، نسميها اللحود أو القبور أو ما شئت لتكون فريسة طيعة لخشاش الأرض وحشراتها، تعبث بها وتنهشها كيف تشاء! أو ماهو السر الكامن الذي يؤدي إلى ضياع «الحياة» هكذا من هذا الجسد؟

انظر معي إلى هذا الإنسان يمتلئ شبابا وحيوية، قوة وفتوة، تتدفق الحياة من جوانبه، وتفور العواطف من أعماقه، يبتسم للحياة، يعانقها بشوق وحب، ترتسم الآمال والأحلام في آفاق عقله، لا تريد أن تقف عند مدى كأنها هو زهرة تتفتح لأنداء الصباح. وفجأة هذه الزهرة اليانعة الفواحة تموت..!! نعم تموت؛ تذوى وتصفر وتجف وتصبح هشيماً تذروها الرياح، أو سطراً مشوشا تائها بين أسطر كتاب الوجود الضخم المهول، أو كلمة صغيرة منزوية في ورقة صفراء داخل دفتر صغير على رف حقير في حجرة مظلمة تقول: كان هنا في الزمان الماضي إنسان يعيش!.

«ما السبب في أن الشجرة المزهرة، تحتفظ بشكلها وأوراقها؛ على حين تتناثر شجرة أخرى تلك التي نسميها ميتة وتتساقط أجزاؤها، وتتفتت في الثرى»[(١)].

إن يد الموت الكهربائية، هي التي لمست الشجرة الثانية، فأودت بحياتها، وداهمت غصونها بالذبول والهمود والجفاف والفناء، فذهب رونقها وغاض ماؤها، وتناثرت

---

(١) آرثر فندلاى: على حافة العالم الأثيري ص٤٣.

أوراقها في مهاب الرياح.

نعم ما طبيعة الموت! هكذا يقف الإنسان في حيرة من أمره، وهو يواجه قوة قاهرة تنتصر عليه في كل دقيقة ولحظة من حياته اليومية.

فإذا كانت الحياة الأولى سرا كبيرا فإن «الموت سرا آخر يعجز العقل البشري عن تصور كنهه، وهو يتم في لحظة خاطفة»[1] ولكن ثم مجال للتأمل والتدبر.

إن الباحث لا يدعي أنه يحاول أن يعرف كنه الموت، أو سره الذي يقف متواريا خلف حجب كثيفة، فهذا مجال مبهم لا يحيط به إلا علام الغيوب رب العالمين.

وإنها هذه محاولة لاستكشاف بعض جوانب هذه الطبيعة «طبيعة الموت» من خلال ما نلمسه في حياتنا اليومية من مظاهر وخصائص قد نستطيع أن نتفهمها وما تركه لنا العلماء السابقون من اجتهادات ورؤى خاصة قد تضيء شيئا من هذا الطريق المظلم

ولا شك أننا نرى أو نلحظ في حياتنا اليومية نوعين من الموت:

أولهما: موت جزئي، وهو هذا الموت المتكرر في الأحايين أو كل يوم أو حتى دون ذلك. وثانيهما: الموت الكلي المعروف.

أولا: موت جزئي في هذه الدنيا:

١- موت الخلايا:

إن أول مظهر من مظاهر الموت التي نلحظها في الحياة، هو هذا الموت المتتابع للخلايا الحية في الجسم الإنساني، حيث تموت داخل جسم الإنسان ملايين الخلايا كل دقيقة، وتولد ملايين أخرى في سلسلة لا تتوقف ولا تنتهي إلا بانتهاء الحياة.

«الحياة والموت، يدب أحدهما في الآخر في بطء وتدرج، كل لحظة تمر على الحي يدب فيه الموت إلى جانب الحياة، ويأكل منه الموت وتبني فيه الحياة! خلايا حية منه تموت وتذهب، وخلايا جديدة فيه تنشأ وتعمل وما ذهب منه ميتا يعود بعضه في دورة أخرى

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن جـ١٧، سورة الحج ص٦٥٢.

إلى الحياة.. وما نشأ حيا يعود في دورة أخرى إلى الموت »[١].

فالحياة والموت قرينان داخل الجسد الواحد، أو بتعبير آخر: إن دورة الحياة تسير في طريقها المرسوم، وتتوازى تماماً مع دورة الموت التي تسير هي أيضا في طريقها المرسوم. وهكذا يحمل الإنسان في داخله عوامل الحياة، وعوامل الفناء في آن واحد ومكان واحد! وهذه إحدى عجائب المخلوقات، صنع العناية الإلهية.

فمن أسرار الحكمة الإلهية، عظة وعبرة، أن يكون الجسم الإنساني مسرحا لعمليتين متناقضتين في الخصائص والسمات « فسمة الحياة التي يحياها الإنسان هي الفاعلية والنمو والامتداد، وسمة الموت: هي السلبية والخمود والانقطاع »[٢]. وهو مصداق واحد من مصاديق قوله سبحانه: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾......[٣].

٢- حالة فقدان الوعي:

هذه صورة أخرى من صور الموت الجزئي.. ولا يهمنا هنا مناقشة أسباب فقدان الوعي. ولكن ما يهمنا هو أن هذه الحالة تتشابه من بعض الأوجه مع حالة الموت الكلي، وهناك خصائص مشتركة تجمعها أهمها: فقدان الإدراك لما يحيط بالإنسان، وبالتالي تعطل الحواس المختلفة بحيث تصبح بلا عمل، وما دامت الحواس أصبحت معطلة لا تعطي العقل صورا حسية: سمعية أو بصرية، أو لمسية أو ذوقية أو شمية، فإن الإدراك العقلي بدوره يتوقف هو الأخر، ومن ثم لا تصل إلى العقل إشارات يستطيع أن يترجمها إلى معان كلية أو جزئية، وقديما قال أرسطو: من فقد حسا فقد علما.

فالعقل - هنا - يتوقف كلية عن القيام بدوره المنوط به لخلل ما، كأنما أصيب بالشلل فلا يتأتى منه أي نشاط من نشاطاته، مثل التصور أو التخيل أو الرؤية المنامية أو التذكر أو إصدار الأوامر وتلقي الإشارات من الحواس، والدليل على ذلك أن فاقد الوعي عندما يسترد وعيه، وتعود له قواه الإدراكية يتعجب كيف مر عليه يوم أو أكثر، ويتصور أن

---

(١) في ظلال القرآن جـ٢ ، تفسير سورة البقرة ، ص٥٦٧.
(٢) في ظلال القرآن جـ٢ ، تفسير سورة البقرة ، ص٢٠٠.
(٣) سورة آل عمران الآية ٢٧.

الأمر كله لا يتعدى لحظة.

ومسألة جهل الإنسان بالزمن الحقيقي الذي مكثه في حالة الغيبوبة تذكرني بما حدث من لبس واشتباه لأهل الكهف، أولئك الفتية الذين مكثوا في كهفهم ثلاثمائة عام وازدادوا تسعا، وللرجل الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[1]. ومن ثم أقول: إن مسألة عدم إدراك الزمن الحقيقي قاسم مشترك بين جميع من فقدوا وعيهم أو ناموا نوما قصيرا أو طويلا، أو حتى ماتوا موتا حقيقيا.

والخاصية الثانية: أن جسم الإنسان يصبح معطلا، وهي نتيجة للخاصية الأولى، لأنها بالضرورة تؤدي إلى فقدان الإنسان السيطرة على جسمه، وعلى عضلاته بأسرها، ما دام قف فقد فيما فقد – الإحساس بوجوده نفسه. إلا أن هذا الجسم شبه الهامد تظل فيه « الحياة » أو سر الحياة: فالقلب ينبض والأنفاس تتردد، والدورة الدموية ماضية في طريقها على ما بها حينئذ من هبوط أو ضعف أي أن الجسم الفيزيقي، يظل في حالة مقترنة بخصائصها المعروفة في الجملة وإلا لانتقل إلى النوع الثاني، أي الموت الكلي.

فالروح، تظل مرتبطة برباط ما مع هذا الجسم، حالة فيه حلولاً كاملاً، قد لا يؤتي جميع ثمراته، ولكنه حلول كامل على كل حال وإن صح بشيء من التوسع أن نسمي هذه الحالة باسم « الموت الجزئي »، أي أن تجربة الموت في هذه الحالة، تمثل تجربة صغيرة من التجربة الكبرى، حين يغيب الإنسان عن هذه الحياة،وتنقطع كل صلاته بها وينتقل إلى عالم آخر يختلف تماما عن هذا العالم الذي نعيش فيه.

وليت من يسترد وعيه، كان يستطيع أن يطلعنا على طبيعة هذه التجربة الصغيرة، أو يصف لنا شيئا من هذا العالم الغامض الذي عاد إلينا منه! هيهات هيهات، فحتى العقل الباطن صفحة بيضاء. نعم قد رويت قصص تتحدث عن ذكريات عاد بها بعض من استرد وعيه عن فترة غيبوبته، ولكنها بالأساطير أشبه.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٩

على أنه لا يفوت الإنسان أن يستخلص الكثير والكثير من العظة والعبرة، إذ إن أوجه التشابه بين هذه الرحلة القصيرة، ورحلة الموت الأخيرة جد كبيرة.

٣- حالة النوم:

تعد حالة النوم من نوع الموت، الذي اخترنا تسميته « بالموت الجزئي »، لأن أمارات الحياة قائمة، لكن مع تعطل بعض وظائفها.

ويهمنا بادئ ذي بدء أن نتعرف طبيعة هذه الظاهرة البشرية ذات الأهمية البالغة. إذ إن الموضوع كان محل نقاش وجدل بين العلماء والفلاسفة وقد أشار إليه القرآن الكريم إشارة واضحة.

فمن بين فلاسفة اليونان، يرى أفلاطون (+٣٤٧ق.م) ومعه الرواقيون «أن النوم يكون راحة الروح الحي عند استرخائه»[١].

وقد يقال: هذا كلام ممكن أن يفهم على معنيين: ذلك إن أفلاطون إن كان يقصد بالروح الحي هذا الجسم الشفاف الأثيري الذي يسرى في الجسد سريان الدهن في السمسم، والماء في اللبن، فهو مخطئ، لأن هذه الأجسام الأثيرية لا تتعب أو تكل لكي تستريح، إذ هي مخالفة في خصائصها مخالفة تامة للأجسام البشرية.

وإن كان يقصد بالروح الحي، الجسم البشري على غرابة ذلك فهو مصيب إذ إن النوم حالة من حالات استرخائه، كي يستجم ويستعيد قواه ومقومات نشاطه.

ولكن المتصفح لكلام الفلاسفة في علاقة الجسد بالروح أو النفس، قد يستشف في هذا الترديد قدراً من السطحية، لأن الجسد والروح يتفاعلان، بل قيل إنهما وجهان لعملة واحدة، وهذا التفاعل هو الذي لحظه أفلاطون في عبارته الأنفة: فهو يريد المجموع ولا يضع حدا فاصلا بين الأمرين فهو إذن وأرسطو (+٣٢٢ق.م)، على قدم سواء [٢].

وهذا، في المآل هو رأى انكساجوارس (+٢٨ق.م) إذ يقول: إن النوم: «شيء مشترك

(١) فلوطرخس : الأراء الطبيعية م٥ / ١٨٤.
(٢) فلوطرخس : الأراء الطبيعية م٥ / ١٨٤.

يعم أفعال البدن» وأن هذه الأفعال للبدن لا للنفس»[١]، لأن هذه الأفعال التي للبدن، تنعكس على النفس تأثيراً وتأثراً.

ويشترك لوقبس (+٤٤٠ق.م) مع انكساجوارس في الرأي نفسه، مضيفا أن النوم يكون بتعب البدن فقط وهي إضافة مفسدة.

ويستخلص مما سبق أن الفلسفة اليونانية لم تقدم تصوراً حقيقياً لطبيعة النوم، بقدر ما قدمت علاقة النوم بالجسم وبالروح أو النفس.

أما أبو حيان التوحيدي[٢](ت٤١١هـ) فيقدم رأيا صائباً إذ يرى «أن النوم واسطة بين الحياة والموت «وهو بعينه رأي الإمام الغزالي (ت٥٠٥هـ) حيث يرى» أن النوم نوع وفاة ومثل النوم بين الحياة والموت، مثل البرزخ بين الدنيا والآخرة[٣].

أي أنهما يريان أن النوم «موت جزئي» كما ذهبنا في بيان نوعي الموت.

وعلى أي حال فهذا ما قرره بعد ذلك الفيلسوف شوبنهاور (+١٨٦٠م) «أن النوم قطعة من الموت نستعيرها لنحفظ ونجدد بها ذلك الجزء من الحياة الذي استنفذناه طوال النهار»[٤].

ويكاد يكون من البدهي أن أبا حيان والغزالي يستمدان رأيهما أساساً من القرآن الكريم، حيث صرح به المولى سبحانه إذ يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [٥] وفصله وقارنه بالموت الكلي في قوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٦].

ويقول المرحوم الشهيد سيد قطب (ت ١٩٦٦م). وهو بصدد تفسير الآية الأولى: «

(١) المصدر السابق والصفحة.
(٢) الإمتاع والمؤانسة جـ١ / ١٨.
(٣) الإحياء جـ١ / ٣٤٥ جـ٤ / ١٧٩.
(٤) حكم وأمثال، نقلا عن أحمد معوض: شوبنهور ص١٠٥.
(٥) سورة الأنعام الآية ٦٠.
(٦) سورة الزمر الآية ٤٢.

هي الوفاة إذن حين يأخذهم (أي البشر) النعاس، هي الوفاة في صورة من صورها »[١].

نستخلص من كل هذا أن النوم «حالة وسط» بين الحياة والموت تعترى الجسم الإنساني لمدة زمنية محددة. وهذه الحالة قريبة من الحالة السابقة أي فقدان الوعي، وأهم فارق بينهما هو قدرة النائم – لا فاقد الوعي – على اليقظة لأي مؤثر فعال يعرض له أثناء نومه «حيث تعتري الحواس غفلة، والعقل سكون، والوعي سبات أي انقطاع»[٢].

إذن فمع تلك القدرة تتعطل حواس النائم المستغرق تعطلاً كاملاً ويفقد كل اتصال له بالعالم الخارجي، ويصبح له عالم آخر يعيش فيه من خلال أحلام النوم، التي تكشف عن أحداث الماضي وتفاعلاته وعقده وأفراحه وأتراحه، أكثر مما تكشف عن أحداث المستقبل.

ومعنى هذا أن العقل الواعي يغيب أيضا عن إدراك ما يحيط به، ويخلى المجال لنشاط العقل الباطن من خلال الصور المختزنة فيه، ويترتب على ذلك الفشل الكامل في تقدير صيرورة الزمن، فيخطئ النائم بعد استيقاظه خطأ جسيما في تقدير مرور الوقت فإذا نام طويلاً فقد يتصور أن الوقت مر كلمح البصر وإذا نام لمدة قصيرة، فربما أعتقد أنه استغرق في النوم طويلاً.

وليس يخفى أن هذه المظاهر تمت بسبب أو بآخر إلى مظاهر الموت الكلي وإن كانت أوجه الاختلاف كثيرة أيضا: حيث في الموت تتعطل الحواس تماما أو بالحري تبطل وينتهي دور العقل بعملياته العقلية المعروفة، وتتوقف الوظائف البيولوجية – كما سوف نرى بعد – ثم الشأن أن لا يعود الميت إلى هذه الحياة[٣] وهذا لا يكون للجسم الحي في أثناء النوم إذ إن النائم ممكن أن يستيقظ عند أقل حركة خارجية أو من تأثير الأحلام المزعجة أو النوم غير المريح وقد يقص قصصا طويلة عن تجاربه الغريبة في عالم الأحلام.

---

(١) في ظلال القرآن جـ٧ ص٢٦٥.

(٢) في ظلال القرآن جـ٧ / ٢٦٥.

(٣)وما سمعنا قط بشيء من هذا إلا فيما يذكر من الخوارق، وهي قصص لا نؤمن بها، لأن كل سلطان شخصي يزعم أن له أصلاً خارقاً للطبيعة قد فات أوانه في تاريخ البشر « محمد إقبال: تجديد التفكير الديني ص١٤٥.

لا ريب إذن أن النوم – كما أسلفنا – تجربة مصغرة لرحلة الموت الطويلة ونحن عادة لا نأخذها هكذا، ولكن المتأمل منا يجد فيها كل يوم طعماً خاصاً، ومذاقاً غريباً لرحلة الموت المرتقبة.

ثانياً: الموت الكلي:

نعني بالموت الكلي هذه الحالة الفاجعة المألوفة لنا جميعاً، والتي ينتهي بها دور الإنسان في هذه الحياة، ويستقبل عالما آخر ما نعلم عنه لا يقاس بما نجهل. وهي بالطبع تختلف في أكثر جوانبها عن الموت الجزئي، إذ تختلف في خصائصها المميزة، وفي النتائج التي تؤدي إليها.

وطبيعة الموت تأخذ بالنسبة لنا مظهرين بارزين كلاهما أليم مروع: المظهر الخارجي، والمظهر الداخلي؛ وهما مظهران من الصعب وضع حد فاصل بينهما بكل دقة، إذ إن التغيرات الجسمية الخارجية، والفسيولوجية الداخلية تعم الجسد الواحد في آن واحد. ولكن لا مفر لنا من معالجة كل واحد منهما على حدة، واستخلاص مميزات من هذا وذاك تعين على تفهم طبيعة الموت.

أ- المظهر الخارجي:

هذا المظهر الخارجي المرئي للجميع، قلما لم يصادفه أحد، فما منا أحد – فيما عدا مستثنيات – إلا وقد فجع في أبيه أو أخيه، أو بأحد أحبائه وارتسمت على مرأى منه ومسمع صورة الموت الكئيبة، على هذا المحيا الأثير لديه أو ذاك: في شحوب بالغ، كشحوب السماء وهي تستقبل بوادر المساء هكذا الإنسان؛القوة والفتوة والتدفق والحيوية، أصبح كومة من العظام شد عليها جلدة واهنة وبرزت العروق نافرة، وغارت العينان في هوة سحيقة، داخل كهف الوجه المظلم، الذي كان ذات يوم ناضراً مشرقاً، وتهدل الحاجبان صانعين أمواجا عديدة، تبدأ صغيرة عند المركز، وتتسع كلما بعدت عنه، فإذا كان قد مضى على حادث الموت بعض الوقت لفترة كافية، بدا الوجه مغطى بالتجاعيد كثمرة ذابلة طال عليها الأمد، وبدت وجنتاه كحبتي برتقال سقطتا منذ زمان فعثا فيهما

العفن، وكأنها الفم الذي كان يوما باسما، وقد التوت شفتاه يمنة ويسرة وفي كل اتجاه، يريد أن يطبع صورة اشمئزاز أو سخرية فتلوح من ثناياه أسنان بارزة لا تذكر بالإنسان بقدر ما تذكر بوحوش الغابة، كما أن الرقبة التي كانت يوماً حلية وجمالا، باتت لا تذكر إلا بشاهد القبر، وكأنها الصدر الذي طالما خفق بالحب والشوق والأمل وقد زال لحمه وشحمه وبرزت عظامه صانعة قوساً كبيراً.

أما باقي الجسم فقد نسج عليه الموت خيوطه المهلهلة، ملونة بجميع الألوان القاتمة والكئيبة، حتى ليصدق عليه ما صدق على فتية أهل الكهف: ﴿**لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا**﴾ [١].

حب البقاء في داخل الإنسان، والموت يزحف ليحكم قبضته الفولاذية على هذا الكائن الواهن الواني (ربما) معركة غير متكافئة، معروفة النتائج يكثف الموت الحصار، والجسم يقاوم وينتفض وأخيراً حشرجات مبحوحة تعلن الاستسلام، والأنفاس تتضعضع رويداً رويداً لتخفت ثم تتوقف. سكت القلب، سكن النبض. لقد انتصر الموت على الحياة.

١- صورة الموت المرئية كما صورها القرآن الكريم:

يرسم المولى سبحانه، صورة حية مأساوية، نابضة بكل ما في استقبال الموت من هول أي هول. ويكشف عن أدق تفاصيل الصورة وأبعادها، بما فيها من دموع وحزن، وكرب وشدة، والله سبحانه هو خالق الإنسان ويعلم ماتوسوس به نفسه ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾.

لذا فإن هذه الصورة هي أدق ما يصور طبيعة الموت وآثاره وهو يزحف نحو الإنسان المسكين. يقول عز من قائل: ﴿**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ**﴾[٢].

(١) سورة الكهف الآية ١٨.
(٢) سورة ق الآية ١٩.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه، ويقول: سبحان الله إن للموت لسكرات «وذكر سكرة الموت كفيل برجفة تدب في الأوصال»[(١)].

فأبعاد الصورة تتضح من عدم القدرة على ضبط الذات: فقدان التوازن والترنح الشديد كغصن شجرة أمام ريح عاصفة، أو كأرجوحة لا تستقر على حال.

وفي لوحة أخرى عرضية،هي في الأصل صورة الجبان المروع ترسم لنا الآيات القرآنية الكريمة صورة الإنسان وقد حل به الموت واستحوذ عليه الرعب،وتمثل ذلك أجلى ما تمثل في منظر العينين الزائغتين تدور في حدقتاهما دوراتها المفزعة، كالباحث في غير طائل عن ملجأ أو منجى ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾[(٢)].

وفي كلمات قليلة بليغة يصف المولى سبحانه الحالة اليائسة التي يكون عليها الإنسان في لحظاته الأخيرة، وقد بلغت روحه الحلقوم، وعلى الرغم من أن هذا أمر داخلي، فإن رد الفعل الفاجع لصعود الروح ينعكس على الوجه ويتمثل تمثلا على ملامحه، فإذا أخوف صورة ترسم لرعب الإنسان! لكن أهو الخوف من المجهول الآتي من بعيد؟ أم الخوف من مشاهد رهبة لا تتبدى إلا لمن كان في سياق الموت؟ أم هي المعاناة الأليمة؟ أم مجموع ذلك كله؟ من يدري؟ وإذا العجز اليائس في لغة الشاهد والمشهود: يقول سبحانه ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ۞ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ.. ﴾[(٣)] إننا نسمع صوت الحشرجة، ونبصر تقبض الملامح، ونحس الكرب والضيق.. كما نبصر نظرة العجز، وذهول اليأس في ملامح الحاضرين.[(٤)]

هذه هي الصورة العامة أو المظهر الخارجي لطبيعة الموت، كما تتبدى في الواقع، وكما

(١) في ظلال القرآن جـ٢٦ ، تفسير سورة ق ، ص٥٥٨.
(٢) سورة الأحزاب الآية ١٩.
(٣) سورة الواقعة الآية ٨٣ ، ٨٤.
(٤) في ظلال القرآن جـ٢٧ / ٧٠٨ بتصرف.

رسمها القرآن الكريم. وتتلخص في التغيرات المحسة التي تظهر على الجسم، وتطبع بسمات التوجس أو المعاناة مقترنة بمظاهر العجز المطلق أفجع ما يكون هذا العجز لا فرق بين محتضر ومودع.

٢- صورة الموت المرئية كما تبدت للفلاسفة:

عكف الفلاسفة على موضوع الموت يتأملون، ويحاولون أن يفسروا طبيعة هذا الشيء الخفي، يأتي متخفيا ويذهب متخفيا، ولا يراه أحد إلا من خلال ضحاياه التي تتساقط في كل لحظة وفي كل مكان من أرجاء المعمورة. الفيلسوف المقدوني يرى أن « الموت في الظاهر برد ويبس، فإذا كانت علة الموت بردا ويبسا فعلة الحياة الحرارة والرطوبة »[١]، هل أقول صدقت يا عقل الأكاديمية، ما أسد رأيك، وأصوب نظرتك؟ أم أسأله متعقبا: فما بالها لا توجد الحياة أو لا تعود إذا وفرتا عنصريها هذين؟ لئن صدق في شيء، فقد صدق في قصر كلامه على الظاهر.

وابن طفيل (ت٥٨١ هـ) هو الآخر، تأمل كثيرا في هذه القضية، وعاش تلك التجربة من خلال موت الظبية في قصته «حي بن يقظان» فكتب رأيه بوضوح بعد أن رأى «الظبية» جثة هامدة، ورسم لنا صورة حية للمظهر الخارجي للموت. يقول: «ما زال الهزال والضعف يستولي عليها ويتوالى، إلى أن أدركها الموت، فسكنت حركاتها بالجملة، وتعطلت جميع أفعالها.. فكان يناديها بالصوت الذي كانت عادتها أن تجيبه عند سماعه، ويصيح بأشد ما يقدر عليه، فلا يرى لها عند ذلك حركة ولا تغيير[٢]، فكان ينظر إلى أذنيها وإلى عينيها فلا يرى بها آفة. فكان يطمع أن يعثر على موضع الآفة فيزيلها عنها فترجع إلى ما كانت عليه، فلم يتأت له شيء من ذلك ولا استطاعه »[٣].

ب- المظهر الداخلي:

هذا هو المظهر الآخر للتغير الفسيولوجي الذي يعتري الجسم البشري من جراء

---

(١) الحاس والمحسوس ص٢٣٦.

(٢) لعلها: تعبيرا.

(٣) حي بن يقظان ص٦٨.

قدوم الموت. وهو مظهر بشع في مجمله؛ فالموت قد حضر وقضى الأمر، ومن ثم تقع سلسلة من التغيرات تنتهي بالإنسان إلى مصدره الأصلي وهو التراب، مصداقا لقول الرسول ﷺ: كلكم لآدم، وآدم من تراب.

فبعد الموت وصعود الروح إلى بارئها، يبدأ جسم الإنسان في التحلل وحين يوضع في قبره، تكتسحه جيوش من الهوام والديدان؛ ملايين من المخلوقات العجيبة منها ما نعرف، ومنها ما نجهل. فلا ندري كم يذهب منه وكم يبقى إلى أن تنحل عناصره إلى أصول تكوينه، «فالموت ليس إلا انحلالاً للعناصر التي يتكون منها الإنسان، فيعود كل إلى أصله. إن الأمر لا يعدو أن يكون تغيرا كبيرا لا فناء»[1].

والحقيقة أن كثيرا من المفكرين والفلاسفة، استرعت انتباههم هذه المسألة هذا أبو حيان يقول: «الإنسان إذا مات فليس يعدم رأساً، بل إنما تبطل عنه أغراض، وتعدم عنه كيفيات، فأما جواهره، فإنها غير معدومة، ولا يجوز على الجوهر العدم ألبته »[2] هكذا رأى أبي حيان. فهو يصور التغير الذي يحصل بالموت على هذا النحو، ولا يراه فناء تاما، ولكن هذا المعنى ربما يكون أوضح إذا أخذ من زاوية ثنائية تركيب الكيان الإنساني، فالجسم بملحقاته مصيره الفناء والعدم، والارتداد إلى طبيعته الأولى.

أما الروح فهي من عالم السماء، عالم البقاء والخلود، ومن ثم لا تصير إلى عدم، بل تصعد إلى ملكوتها وهذا هو ما يردده الإمام الغزالي إذ يقول: «العقل لا يتغير بالموت، إنما يتغير البدن والأعضاء، فيكون الميت عاقلا مدركا بالآلام واللذات كما كان»[3]. وهو رأي مستقى من نصوص القرآن والسنة ردا على منكري البعث الذين: ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وتكرر ذلك من قولهم في سورة الصافات ١٦-٥٣، وفي سورة الواقعة الآية ٤٧. ولكي تكتمل الصورة صورة طبيعة الموت، يبقى الجانب الآخر من الإنسان: أي الجانب الحي الذي اختاروا أنه لا يموت، وهذا ينقلنا إلى النقطة التالية.

---

(١) محمد يوسف موسى: تاريخ الأخلاق ص١٣٢.
(٢) الهوامل والشوامل ص١٨٨.
(٣) الإحياء جـ٤ / ٥٠٣.

ج- صعود الروح إلى الملكوت الأعلى:

هناك شبه إجماع بين أصحاب المناحي الفلسفية، والاتجاهات الدينية ان الموت واقع على الجسد دون الروح، ويترتب على ذلك فناء الجسد، وخلود الروح « فمنذ أن وعى الإنسان وجوده على الأرض، أحب الحياة وعشقها، وكره الموت الذي يطارده شبحه كل لحظة، فعمل جاهدا على التوصل إلى وسيلة يستأنف بها للحياة مرة ثانية. وقد صور الإنسان هذا الاستئناف بصور شتى، وأشكال متباينة. وهي في جملتها صدى لرغباته، أو انعكاس لعالمه الحاضر والحياة التي يحياها ويريد بذلك أن يلتمس لنفسه السلوى إزاء قصر الحياة، وبغتة الموت، ومن ثم تفتق ذهنه منذ فجر التاريخ عن فكرة الخلود، ثم جاءت الأديان، فطيبت خاطره، وهدأت من روعة، وأكدت فكرة استمرارية الحياة مرة ثانية في عالم آخر»[١].

ومنذ ربيع الفلسفة اليونانية قرر سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، خلود الروح، حتى ليقرر سقراط بكل وضوح وهو يشرح لسمياس طبيعة الموت: «وهل يكون الموت إلا انفصال الروح عن الجسد؟ والإنسان إنما يبلغ هذا الانفصال إذا قامت الروح بذاتها مفصولة عن الجسد، وقام الجسد مفصولا عن الروح»[٢].

ومن بعده أفرد تلميذه «أفلاطون محاورة مستقلة هي» فيدون «لكي يسوق البرهان تلو البرهان لتأكيد مبدأ خلود الروح.

وأرسطو على الدرب نفسه يسير فيقول: «إن الموت للبدن وحده لا للنفس فإنه لا موت لها»[٣].

وفلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب، ناقشوا هذه المسألة باستفاضة وكانت ركيزتهم الأساسية: القرآن والسنة، لذلك لم يخالفوا في مجمل رأيهم قول القرآن بخلود الروح:

---

(١) الزيني : مشكلة الفيض ص٤٨ ، الدكتور مدكور : في الفلسفة الإسلامية جـ١ / ١٨٠-١٨١ ، ديورانت : مباهج الفلسفة جـ٢ / ٢٥٩.

(٢) افلاطون : محاورة فيدرون ص١٢٣.

(٣) فلوطرخس : الآراء الطبيعية ص١٨٤.

فالكندي (ت٢٥٢ هـ) «قرر خلودها، وأن الجسد يفنى ويبيد، أما هي فباقية بعد الموت بعد أن تتحرر من الجسد»[١].

والفارابي (ت٣٣٩هـ) «أطلق القول بخلود النفس الكاملة»[٢].

ومسكويه (ت٤٢٠ هـ) يرى أن خلود النفس أمر بدهي لا يحتاج إلى برهان، لأن النفس جوهر مجرد حي، وهذا باق لا يقبل الموت ولا الفناء. أو بعبارة أخرى، لأن النفس ليست بجسم ولا عرض، وإنما هي جوهرة بسيطة. والجواهر المجردة، غير مركبة ولا ضد لها، وما لا ضد له لا يبطل، وغير المركب لا ينحل ولا يفسد[٣].

وابن سينا (ت٤٢٨ هـ) كذلك، وبراهينه مشهورة، أهمها: برهان الانفصال، والبساطة، والمشابهة [٤].

وإخوان الصفاء ينحون المنحى نفسه فيؤكدون أن الموت واقع على البدن وليس النفس «فهي جوهرة روحية، بسيطة لا تفسد، ولا تفنى، بل إن ولادتها تكون عند موت الجسد، حين تتحرر تماما من كل القيود التي تكبلها... فإذا تحررت منه، اقتصر الفساد والآفات على الجسد»[٥].

ورأى الغزالي صريح بهذا المعنى إذ يقول: «لو تناثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء المدرك الذي لا يتجزأ ولا ينقسم،لكان الإنسان العاقل بكماله باقيا وهو كذلك بعد الموت»[٦].

وهو يؤكد هذا المعنى في مكان آخر بقوله: «الموت معناه تغير حال فقط وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد»[٧].

---

(١) رسالة القول في النفس ص٢٧٥.
(٢) المدينة الفاضلة ص٩٥-٩٦، الزبيني: مشكلة الفيض ص٥١.
(٣) الفوز الأصغر ص٤٦، الزبيني: مشكلة الفيض ص٦٠.
(٤) الشفاء: النفس ص٢٠٢، ٢٠٦.
(٥) الرسائل جـ٢ / ١٨ جـ٣ / ٥١.
(٦) الإحياء: جـ٤ / ٥٠٣.
(٧) الإحياء جـ٤ / ٤٩٤.

ومن يريد الاستزادة في هذه المسألة فعليه مراجعة كتبه[١] حيث أورد الكثير من الحجج، ليؤكد فيها خلود الروح فهي عنده إحدى المسلمات كما هي عند عمانويل كانت +١٨٠٤م، إلا أن منطلق الغزالي في البدء والنهاية هو القرآن والسنة.

وإذا انتقلنا إلى المغرب العربي فمن الجدير أن نشير إلى رأى البطليوسي (٥٢١ هـ) الذي قرر: أن النفس الناطقة على الرغم من حدوثها، فهي باقية، خالدة، بعد فناء الجسد، ويقدم براهين كثيرة على هذا الخلود[٢].

ونشير إلى رأي ابن طفيل الذي تعرفناه سابقا في مسألة التغير الفسيولوجي الظاهري للموت ذلك أن خلود الروح عنده يتضح من خلال محاولات بطله «حي» أن يستكشف أسباب موت أمه الظبية فإن «حيا» لما لم يجد أن هناك علة ظاهرة يرجع إليها الموت «وقع في خاطره أن الآفة التي نزلت بها إنما هي في عضو غائب عن العيان مستكن في باطن الجسد، وأن ذلك العضو لا يغنى في فعله شيء هذه الأعضاء الظاهرة»[٣].

وقد أخذت الحيرة «حيا» لأنه جهل طبيعة هذه القوة التي كانت تسكن هذا الجسد، وأجهد نفسه لكي يعرف حقيقتها، والعلاقة بينها وبين الجسد وإلى أين صارت، ومن أين خرجت؟[٤].

وبعد تفكير عميق وبحث دءوب، واستقصاء لجوانب النفس والجسد، تبين له أن النفس «أمر غير جسماني، لا يجوز عليه شيء من صفات الأجسام، أخص خصائصها أنها بريئة عن شوائب المادة ومن ثم فهي لا تفسد ولا تموت، لأن الفساد مختص بالأجسام[٥]أما فيلسوف قرطبة، فلا يشذ عن هذا الإجماع، فيقرر هذا الخلود صراحة كما هو متوقع في كتابه «مناهج الأدلة» ويبين أن لها في خلودها أحوالا من السعادة والشقاء،

(١) معراج السالكين ص٣٦ ، الرسالة اللدنية ص١٠ ، معارج القدس ص٩٥-١٠٢.
(٢) الحدائق في المطالب العالية ص٦١-٦٢ ، الزيني : مشكلة الفيض ص٦٨.
(٣) حي بن يقظان ص٦٩-٧٠.
(٤) المصدر السابق ص٧١-٧٢.
(٥) المصدر السابق ص٩٣-٩٤.

ويدلل على ذلك كله بأدلة شرعية وعقلية [١].

ونختم هذه الآراء في مسألة خلود الروح برأي لأحد أئمة الحنابلة، ونعني به ابن قيم الجوزية المتوفى عام ٧٥١ هـ. فقد قرر مع الكثرة الغالبة، أن الروح خالدة، تبقى بعد فناء البدن، وأنها لذلك خلقت كما نرى في مثل قوله: «أن موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها، وخروجها منها، هذا وحده هو الموت الذي نستطيع أن نطلقه على الروح، كما أطلقه الله تعالى، إذ يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾. لأن النصوص صريحة في أنها باقية بعد هذه الحياة – إما في نعيم أو في عذاب» [٢].

ونخلص من جملة الآراء السابقة: بأن الموت ما هو إلا موت الجسد، هذا الشيء المادي الملموس الذي ينتمي إلى عالم الحركة والصيرورة والفناء، وتسرى عليه قوانين هذه الحياة: فيمرض ويبلى ويتحلل ويفنى، ويرد إلى أصوله الأرضية.

أما الروح الملابسة للجسد، والقوة المحركة له، الحالة فيه، أو الجسم الأثيري، كما يقول العلماء، فتفارق الجسد وتذهب إلى عالمها، عالم الروح الخالص، عالم النور والملائكة والفيض الإلهي. ومن ثم تتضح طبيعة الموت بجلاء من خلال فهمنا لهذه الحياة: فهي خطوة على طريق الخلود، يصل الإنسان إليها لكي يعبرها إلى عالم آخر ولكي ينتقل إلى ذلك العالم الآخر فلا بد أن يتخلص من هذا الجسد، إذ إنه سيذهب إلى عالم لا يحتاج فيه إليه، ثم هل تبقى الروح كيانا مستقلا: جوهرا من الجواهر النورانية تعيش في عالم الخلود مجردة؟ أم أن الله سبحانه سيحدث بعد ذلك أمراً كان مقدوراً، فتكون إعادة الأجساد، ثم الثنائية مرة أخرى على نمط مختلف جدا؟ هذا مجال نقاش طويل بين علماء الدين والفلسفة.

ثالثا: إرادة الله:

وبعد كل هذا: بعد كل هذه التفسيرات الفسيولوجية والبيولوجية، الخارجية والداخلية، والتعرض لخلود الروح بعد انفصالها عن الجسد ما زال تفسيرنا لطبيعة الموت

---

(١) ابن رشد: مناهج الأدلة ص٢٤٣-٢٤٤، الزيني: مشكلة الفيض ص٧١.
(٢) ابن القيم: الروح ص٢٥٣.

مبتورا ناقصا.. فمهما سمعنا من العلماء والفلاسفة، فلا بد أن نسمع صوت الحق، واجب الوجود، خالق الإنسان فقوله هو القول الحق، الذي لا يقبل النقض: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾[١].

لماذا لا نؤمن فنريح ونستريح. أن الموت – الذي هو قانون من قوانين الحياة – خلق من خلق الله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[٢]. وهو فعل من أفعال العناية الإلهية تتجلى فيه إرادة المولى سبحانه.

ومهما نرى في حياتنا من مظاهر كثيرة للموت القادم من خلال أمراض الجسم التي تصيب القلب أو الرئتين أو الرأس، أو أي منطقة من مناطق الجسم، ومن خلال لا شيء فيما يبدو لنا، ومهما يقل لنا علماء البيولوجيا: أن الموت يأتي بعد أن تتهاوى الأجهزة الداخلية والخارجية للإنسان، وتشيخ وتهرم وتصبح غير قادرة على أداء وظائفها.

مهما نرى ومهما نسمع، فإن علينا أن نفسر طبيعة الموت في أصلها بأنه إرادة الله السارية في الكون، الذي يقول للشيء كن فيكون[٣].

طبيعة الموت هذه، هي كلمة الله النهائية للإنسان في هذه الحياة هي إشارة الرحيل، وربما قال قائل أنها دليل المحبة، ودعوة للقدوم إلى العالم الخير الجديد الذي تنتفي فيه ملامح الشر وقسوة البشر وعبودية بعضهم لبعض وحقد الشيطان وهوس الجاهلية.

طبيعة الموت؛ هي النعمة الإلهية التي أسبغها الله على عباده دون أن يدركوا ذلك، لأنهم محاصرون بأثقال المادة، وكثافة التراب، وشهوة الجسد وأحلام العمر الجديد.

هذا مجمل القول: أما تفصيله وتفسيره وتحديد معالمه م فلا مناص من هذا الاعتراف: أن المسافة بين طبيعة الموت وطبيعة الحياة مسافة هائلة تدير الرؤوس، ولكنها في حساب القدرة الإلهية أمر يسير.. كيف؟ هذا مالا أحد يدريه، مالا يمكن لأحد إدراكه.. إن إدراك الماهية والكيفية هنا سر من أسرار الألوهية، لا سبيل إليه في عالم الفانين..! وإن يكن في

---

(١) سورة فصلت الآية ٤٢.

(٢) سورة الملك الآية ٢.

(٣) عبد الغني عبود: اليوم الآخر ص٦٦.

طوق العقل البشري إدراك دلالته والاتعاظ به»[1].

القوانين الإلهية السارية داخل هذا الكون، هي التي أوجدت هذه الثنائية والنظرة المدققة ستلمسها بين أفراد البشر، ومكونات الوجود.

والآن، وفي ختام هذا الفصل- دعنا نستمع إلى صوت الشاعر الذي.. يخلط الفن بالفلسفة إذ يصف الحياة والموت:

«حياة الغيوم فراق ولقاء، دمعة وابتسامة، كذا النفس تنفصل عن الروح وتسير في عالم المادة، وتمر كغيمة فوق جبال الأحزان وسهول الأفراح فتلتقي بنسيمات الموت، فترجع إلى حيث كانت: إلى بحر المحبة والجمال إلى الله»[2].

***

(١) سيد قطب : الظلال جـ١ / ١٠٢ (تفسير سورة البقرة).

(٢) جبران خليل جبران : دمعة وابتسامة ص٢٤٣ (من الأعمال الكاملة).

الفصل الرابع

الخوف من الموت

الفصل الرابع

الخوف من الـــــموت



تمهيد

سؤال يطفر إلى سطح العقل البشري، ويلح على الإنسان بصفة دائمة، حتى ليكد الذهن، ويرهق الأعصاب.

إذا كانت هذه هي طبيعة الحياة، وسنة الوجود، أن كل كائن حي – وليس البشر فقط – مصيره في النهاية إلى « فم الحوت » فلماذا نخاف أشد الخوف من الموت؟

لماذا نرتاع منه كل هذا الارتياع،ونود لو استطعنا أن نجد إكسير الخلود أو أن نصنعه بأيدينا إن لم يكن لهذا الإكسير وجود.

كل يوم ترى أعيننا الرحلة الحزينة إلى العالم الآخر، ونكتوي بنار المحنة كل يوم نشاهد مسيرة الموت، وهو يتحسس بأصابعه القاتلة أجساد البشر ليأخذهم إلى حيث لا يعودون، ونبكي على موتانا وعلى أنفسنا!

ذا كنا من ناحية نشاهد قسوة الحياة، ومصائب الكون، والشرور الفيزيقية والميتافيزيقية[١]، ومن ناحية أخرى، نرى سكون المقابر، وصمت الموتى وراحة الموت فلماذا نؤثر أن نشتري العذاب بالراحة، والمصائب بالسلام؟!

حين يتساءل قس بن ساعدة الأيادي (ت نحو ٦٠٠م) عمن وردوا حياض الموت: «مالي أرى الناس، يذهبون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا أم حبسوا فناموا؟»[٢]، فإن

---

(١) الشر الفيزيقي malphysique : يراد به المصائب التي تحل بالناس على شتى صور الآلام / كالقتل والحرق والغرق ؛ والشر الميتافيزيقي mal metaphysique : يراد به المقدورات التي يكره العبد أن تحل به وهي صادرة من يد القدر مباشرة كولادة المشوهين ، أو فاقدي العقل (أندريه كريسون : المشكلة الأخلاقية ص٢٤٣).

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين جـ١ / ١٦٨ ، أبو حاتم السجستاني : المعمرين من العرب ص٧٠.

الخوف الشديد من الموت وراء هذا التساؤل.

هذا أبو حيان التوحيدي، يقدم لنا رؤيته: « العمر قصير، والساعات طائرة، والحركات دائمة، والفرص بروق تأتلق، والأوطار في عرضها تجتمع وتفترق، والنفوس على فواتها تذوب وتحترق »[1]، أهو الخوف على فوات الفرص وليس الخوف من الموت نفسه؟!

لا أظن أن الموت في نفسه مرير المذاقة، كريه المرآة،ومن ثم جدير بأن يخاف منه خوفا ما بعده خوف في هذه الحياة.

وهذا شوبنهاور، فيلسوف التشاؤم، يطرح أمامنا تساؤلاته المريرة، حول شقاء الحياة وخوف الإنسان من الموت فيقول: لماذا يخاف الإنسان الموت رغم أن أبسط تأمل للحياة يظهر بجلاء أن الحياة « عوز وتعاسة وأسى وبؤس »؟ لماذا يعتبر الموت « الشر الأعظم وأسوأ عقاب يمكن التهديد به » ولماذا يعد الخوف من الموت «الخوف الأعظم»؟ علاوة على ذلك «فإن الإنسان لا يخاف الموت لنفسه فحسب وإنما لأعزائه ويبكي بمرارة رحيلهم، لا بسبب فقدانه إياهم بقدر ما هو إشفاق من النكبة العظيمة التي حلت بساحتهم»[2].

وهذا الفصل محاولة لاستكناه أبعاد الخوف الخافية في أعماق الإنسان الخائف من الموت.

أولا: سمة الخوف:

تعتبر سمة الخوف من السمات المميزة للطبيعة البشرية، الخوف من شيء ما؛ من ظلام الليل، من مجاهل الصحراء، من أعماق البحار، وأعالي الجبال، من العواصف المدمرة، من الصواعق المحرقة، من الإنسان الآخر بكل أغواره البعيدة، وأبعاده الخفية، من الغد المبهم، وأحداث المستقبل المجهول. نحن البشر نخاف كل شيء حتى ذواتنا نخاف

(١) الإمتاع والمؤانسة جـ١ / ٣٥-٣٦.
(٢) جاك شورون: الموت في الفكر الغربي ص١٨٢.

السماء، وهي منبع الأمن، نخاف الطبيعة، وهي مرقد الراحة، ونخاف إله الآلهة وهو محبة ورحمة[1].

ويرى علماء النفس أن استعداد الخوف غريزي عند الطفل أي أنه من الاستعدادات الفطرية التي يولد مزودا بها، ويبدأ في الظهور عنده في وقت مبكر؛ «فيسأل عن المقبرة، ولأي شيء هي؟ ويسمع أول تفسير للموت»[2] وتترسب عنده عقدة الخوف، وتشب معه تدريجيا على حسب أحواله النفسية والاجتماعية والعقلية، حتى يصير رجلا.

وهذا المتربص المجهول الذي لا يغالب،المترصد للإنسان في كل آونة ولحظة، وفي كل صوب واتجاه، أليس جديرا بأن يكون أخوف ما يخاف؟ أليس جديرا بأن يفرى كبده ذعرا ورعبا؟

«قيل لخالد ين يزيد بن معاوية: ما أقرب شيء؟ قال الأجل، قيل فما أوحش شيء؟ قال الموت[3]!

فالإنسان كما أنه حيوان مائت، هو أيضا حيوان خائف، وقد قدم القرآن الكريم - أحسن تقديم وأروعه - صورة حسية نشاهدها بأعيننا، ونكاد نلمسها لمس اليد، للخوف من الصواعق التي قد تحمل الموت، وطوفان الهلاك، يقول المولى سبحانه:

﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[4].

كأن أولئك الخائفين يودون لو استطاعوا أن يحولوا دون سماع الصواعق (صوت الموت المدوي) ولو بإدخال الأصابع كاملة في آذانهم وهو ما لا سبيل إليه أين النجاة ولا نجاة؟

وقد تكررت عبارة «حذر الموت» في القرآن الكريم دليلاً على ما لا يحتاج إلى دليل، على استكناه العلم الإلهي أغوار النفس البشرية، فيما يتعلق بالموت ومخافة الموت، واجتهاد الإنسان في الحيدة عن سبيله لو استطاع.

---

(١) جبران خليل جبران: دمعة وابتسامة ص٢٧٥ (الأعمال الكاملة).

(٢) سبوك: مشكلات الآباء ص٢٣٧.

(٣) ياقوت الحموي: معجم الأدباء جـ١١ / ٣٩.

(٤) سورة البقرة الآية ١٩.

ولما كان الله خالق البشر، ويعلم ما توسوس به نفوسهم، فربما توهم أنه من أجل ذلك، تحدى سبحانه اليهود، في أكثر من آية، أن يتمنوا الموت وهو يعلم علم اليقين أنهم لن يتمنوه أبداً وذلك إذ يقول: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لله مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[1].

ومن ثم يتضح بجلاء أن القرآن الكريم عبر عن أعماق النفس البشرية التي تنطوي على هذا الخوف الفاجع من الموت.

وفي السنة النبوية عن «أنس بن مالك عن النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام عن رب العزة أنه قال: ما ترددت في شيء كترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد منه»[2]. ويقول بشر الحافى (ت٢٢٧ هـ) أحد كبار الصوفية كاشفا عن جوانية الإنسان تجاه الموت: «أنا أكره الموت: ولا يكره الموت إلا مريب»[3].

ويقول شوبنهاور: «إن الظاهرة النفسية الأولى فيما يتصل به (أي الإنسان) هي» الخوف «منه (أي الموت) فكل كائن حي يخشى الموت مهما كانت مرتبته في سلم التصاعد الوجودي»[4].

ونخلص من هذا أن الخوف غريزة مركوزة في فطرة الإنسان لا مخلص منها.

ثانيا: درجات الخوف:

خوف الإنسان من الموت ليس على وتيرة واحدة، أو مستوى واحد؛ أي ليس بنسبة واحدة في جميع مراحل العمر، فترمومتر الخوف في صعود وهبوط بحسب هذه المراحل، فبينما يسيطر سيطرة كاملة في مرحلة ما فيطبع السلوك الإنساني بطابع خاص، إذا هو خفيف الوطأة، أو قليل الأثر لا تكاد تحس له وجودا في مرحلة أخرى. فالطفل يخاف،

(١) سورة الجمعة الآية ٦ مثلها في سورة البقرة الآيتين ٩٤-٩٥.
(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري جـ١١ / ٣٤٢.
(٣) السلمى : طبقات الصوفية ص١٤.
(٤) الدكتور عبد الرحمن بدوي : شوبنهاور ص٢٣٦.

ويتساءل هل لا بد أن يموت؟ وقد يتملكه هذا الخوف ويضنيه، إلا أنه أحيانا يفلسف موقفه أو يفلسفه له الكبار أنه صغير، وليس هناك ما يدعو الموت أن يأخذ الصغار أمثاله، فتطمئن نفسه وتتلاشى أو تتوارى فكرة الموت في ثنايا اللاشعور.

أما مرحلة الشباب التي تتميز بالقوة والفتوة، « فهذه المرحلة هي مرحلة الاندفاع، والانطلاق. إن (الشاب) لا يتعب أبدا، يعيش في الحاضر ولا يندم على الأمس ولا يخشى الغد إنه مرحلة الشعور الحاد والرغبة الجامحة فلم تهذبه التجربة بعد بالتكرار ومواجهة الحقائق»[١].

والخوف هنا تنحسر مساحته ويتقلص شيئا فشيئا، حتى ليكاد الشاب يرى أنه في مأمن من خطر الموت القادم إنه يخيل إليه أن الموت إنما يفترس الضعفاء ولا يقوى على الأقوياء، وأن من يختطفهم من الأقوياء أو يتهاوون صرعى تحت أقدامه فأقل ما يقال فيهم: أنهم أناس سيئوا الحظ أخذتهم أحابيل الموت على خلاف ما كان يرجى ويتوقع.

وإذا فكر في الموت فتفكيره موقوت، وخوفه محدود لا سيما إذا نزل بشاب مثله، وذلك لموضع التشابه الذي بينه وبين أولئك الآخرين الذين نزل بهم قدر الموت.[٢]

ويصدق عليه قول أبي العتاهية:

نراع لذكر الموت ساعة ذكره   ونغتر بالدنيا فنلهو ونلعب[٣]

فإذا نزل به هو قدر الموت، ونفذ فيه سهمه، فقد التحق بركب سيء الحظ وكانت المصيبة عنده وعند ذويه أكبر من أن تحتمل، لاختلال الحسابات وانعكاس التوقعات.

وأبو بكر الخوارزمي، يصور هذه المحنة، بقلمه البليغ، في رسالة له أرسلها إلى صديق له يعزيه في فقد ابنه الشاب، وذلك إذ يقول: « إنها مصيبة خرجت من كمين الدهر قبل أن يستعد لها بعدد الصبر، وجاءت مجيء البغتة، ووثبت وثبة المسارقة، وغلبت الأيام على

---

(١) ديورانت: مباهج الفلسفة جـ٢ / ٢٩٣-٢٩٤.
(٢) ابن رشد: تلخيص الخطابة ص١٥٩.
(٣) ديوان أبي العتاهية ص٤٨.

ذلك الحر أطرى ما كان غصنا، وأتم ما كان حسنا، وأبعد ما كان أملاً، وأظهر ما كان جذلاً، حتى كأن المنون أخذته خلسة، وانتهزت فيه فرصة وفقد الشباب الطرى أكثر جزعاً، وكسر العود الرطب أشد وجعاً»[١].

وهكذا يصور للشباب جهله أو غروره أن رحلة العمر طويلة، وأن الأماني الحلوة أمامه وأن علامات الخوف على طريق الموت، ليست جديرة بأن يقرأها أو أن يعيرها - إن أعارها - إلا لفتة قصير، وقد أشار أرسطو إلى هذه الفكرة، فكرة قلة الخوف من الموت عند الشباب إذ يقول: « إن الشر المتوقع في الزمان المتقبل البعيد، ليس يخافه أحد، بدليل أن كل أحد يعلم أنه يموت لا محالة، ولكن لأنه ليس يعلم أنه قريب، فهو لا يخاف من الموت »[٢].

ومع أن الشاب قد يعتقد أن عالمه خال من منغص الموت إلا أنه قد يفاجئ به في عرض الطريق فاردا ذراعيه، وأصدق تشبيه لدرجة الخوف عنده أنها كنجم تغمره أشعة شمس الشباب الوهاجة وكلما خبت هذه الأشعة، كلما تكشف هذا النجم وأخذ في الظهور للعيان.

أما في مرحلة الشيخوخة، فتبرز فكرة الموت كثيراً كثيراً، حتى ليكاد الإنسان يكون محاصراً بها حصاراً محكماً، نظراً إلى التغيرات الكثيرة التي تطرأ إذ ذاك، جسمية كانت، أم عقلية، أم نفسية، أم اجتماعية والخوف أغلب على كل حال على تفاوت في درجاته.

فالتغيرات الجسمية تتمثل في اضمحلال القوة، واستحواذ الضعف، وذهاب النضارة، وجفاف العود، كنخلة تودع الحياة في جوف صحراء قاحلة.

ومن مظاهر التغيرات العقلية التؤدة والتأني، واختفاء التشبث بالرأي والتمرد، حيث كل شيء قابل للنقاش، وفكرة الموت - ليست استثناء - فهي الآن غدت مقبولة، رغم مرارة مذاقها، وتتطلب التهيؤ والاستعداد للقادم المرعب نعم إنها خبرة السنين.

---

(١) رسائل الخوارزمي ص١٢.
(٢) ابن رشد : تلخيص الخطابة ص١٥٧.

ومن التغيرات السيكولوجية: أن كل شيء يصبح في تراجع وتدهور حتى النشاط العقلي، والرغبة في الحياة، تهدأ الانفعالات، وتصبح فكرة الموت ليس لها قوة النفاذ الحاد في اللحم والعظام، لكنها تبدو فكرة مقبولة لنفس قد خبرت جوانب الدنيا، المضحكة المبكية، بأفراحها، وأتراحها، ومن ثم تصنف فكرة الموت وخواطره ضمن الانفعالات غير السارة.

أما التغيرات الاجتماعية، فتمثل في تغير الجو المحيط بالشيخ: الخلان مضوا، والأحباب ذهبوا، والحياة لم تعد هي الحياة، الزمن قد تغيرت ملامحه حتى العادات الاجتماعية تبدلت، بما فيها الأزياء والمآكل والمشارب والمقتنيات والرجل الشيخ نفسه لم يبق منه إلا أقله، وهذا الأقل يكاد لا يمت بصلة إلى ما ذهب – فهو غريب في العالم بل في موطنه وبين أهله يعد أو يكاد يعد من سقط المتاع كما يقول قطرى بن الفجاءة.

ويطرح الفيلسوف الفرنسي « شارل رينوفيه » تصوراً آخر، يقارن فيه بين خوف الشاب والشيخ، إذ يقول: « إن الإنسان عندما يكون شيخاً – وقد اعتاد الحياة – يصعب عليه كثيرا أن يموت، وأن الشبان أكثر خضوعاً للموت من الشيوخ!! » ويعلق الأستاذ عباس العقاد قائلا: أما الواقع .فهو أن الشيوخ يخافون الموت لأنهم ضعاف والخوف أقرب إلى طبيعة الضعفاء، ولا فرق في هذه الخلة بين الشيخ والفتى. [(١)] وليس فيه مناقضة لرأي الفيلسوف الفرنسي.

وأعتقد أن مسألة الضعف واردة فعلاً، والشأن أن هذا الضعف عند الشيوخ أكثر منه عند الشباب فالمقارنة واضحة بين المرحلتين، ولكل مرحلة مستثنياتها إذ إن كل قاعدة لها [(٢)] شواذها كما يقولون.

إن الشيخ يدخل في نطاق مرحلة حرجة، فتزداد عنده حدة الشعور بالموت ويتراكم الخوف عادة، إذ تصبح مواجهة الموت واردة في « جميع » الأحوال، بعد أن كانت واردة في « بعض » الأحوال.

---

(١) العقاد : بين الكتب والناس ص٤٤٧.

(٢) يطلعنا التاريخ على أسماء كثير من الشيوخ تقبلوا الموت بشجاعة منقطعة النظير وعلى رأسهم سقراط ، والشهيد سيد قطب.

وهذا هو جوهر ما يقوله ديورانت إذ يصور ارتفاع موجات الخوف من الموت عند الشيوخ بقوله: بعد الأربعين نؤثر أن يظل العالم كما هو، وأن تتجمد صورة الحياة المتحركة إلى لوحة ثابتة، وندرك أول الأمر، دون أن نصدق ثم نصدق بعد ذلك يائسين، إن خزان القوة لا يمتلئ بعد أن نغترف منه أو بعبارة شوبنهاور: أصبحنا نعيش على رأس المال، لا على الدخل، وهذا الاكتشاف يجعل الحياة مظلمة عدة سنين، فنندب قصر الحياة الإنسانية، واستحالة الحكمة أو تحقيق الأمل في هذه الدائرة المحدودة، إننا نقف على قمة التل، ونستطيع أن نرى الموت في أسفله دون أن نجهد أعيننا لم نكن نسلم بوجود الموت قبل ذلك، فهو فكرة مجردة أكاديمية لا يمكن أن يفكر فيها الرجل القوي. وفجأة نجدها أمامنا بغير رحمة، ومهما نحاول البعد عنه فإننا نهبط التل ونقترب منه، ونتلفت إلى الوراء في صفحة الذاكرة إلى الأيام التي لم يسودها وجوده»[1].

وقد نطرح تصوراً آخر للوقوف على درجة الخوف من الموت، يتمثل في المقارنة بين الإنسان الناجح والإنسان الفاشل.

فالأول الذي حقق أهدافه، ونال مآربه، وظفر بأمنياته، وأصبح رجلا ناجحا فخورا بنفسه وتبوأ مكانة اجتماعية مرموقة، وعاش حياته كما يجب، لا شك أن هذا الإنسان يكون عنده قناعة كاملة، إنه أدى دوره المنوط به في الحياة وعليه أن يترك مكانه للآخرين، ومن ثم فهو يواجه الموت بصدر رحب، واقتناع كامل، وارتياح لا بأس به.

والعكس صحيح، فالإنسان الفاشل، لم يجن ثمار أيامه، ولم يحقق طموحه أو يظفر ببغيته أو منشوده من الحياة، لذلك يكون متبرماً متمرداً ويعيش دائماً على أمل الغد الآتي في رحم الغيب، عله يحقق ما استعصى عليه في الأمس، ولكن الحياة لا تعطيه ما يرجو، وتخيب آماله وتعانده،لذلك يصبح موقفه من الموت خوفا مستمراً وهلعاً شديداً، وألما ممضاً، إذ إن الموت سيضع نهاية لحياته، وهو يعيش على أمل أن يحقق شيئا ما في الغد القريب.

---

(١) مباهج الفلسفة جـ٢ / ٢٩٩.

وربما يكون هذا ما قصده مفكر معاصر إذ يقول:

«يبدو لي أن الشخص الذي يحب الحياة، ويعرف كيف يتذوق ماهيتها، عالما أنها تهب ذاتها له دائما بجملتها لا يمكن أن يخشى الموت لأنه يمتلك الحياة امتلاكاً كاملاً.

وأما ذلك الذي يرفض الحياة أو يبغضها، لأنه يظن أنه لم يحظ منها بشيء فإنه لا بد بطبيعة الحال أن يخشى الموت، ولعل هذا هو السبب في أن الجزع من الموت هو أقوى ما يكون عند الساقطين المتبرمين بالحياة، بينما هو لا يكاد يقض مضجع أولئك الذين يشعرون بقيمة الحياة»[1].

خلاصة القول أن الخوف من الموت يتطور مع الإنسان في شتى مراحل حياته، ويبلغ عادة أقصى درجاته، عندما يوغل الإنسان في العمر، وإن كان قد يوجد من يستأنس به إذ ذاك فهو يبدأ هنا يسيراً مستبعداً أو محتملاً، ثم يتحول في الأكثر إلى عبء مهول مجهول لا يرحم يطارد الإنسان، وخاطر ملح مروع يلح على وجدانه، يقلق نهاره، ويؤرق ليله، ويلون الحياة بطابع مأساوي، لا سيما عند ذوي النفوس المرهفة الحساسة، التي تخاف المجهول، بقدر ما تتوق إلى اكتشاف كنهه وسره.

ثالثا: لماذا نخاف من الموت؟

تمهيد

لا أحد ينكر أننا في الجملة جميعا نخاف من الموت. ولهذا الخوف مظاهر متعددة، ربما يكون أهمها: طرد هذه الفكرة من البداية بمجرد ظهورها في أفق العقل، ووأدها حينما تظهر في حيز الوجود، وتعلق الإنسان بالأمل الباسم في عمر مديد.

هذا هو القاسم المشترك بيننا جميعا – (الخوف) من الموت.

لكن لماذا نخافه؟ عند كل واحد منا أسبابه الكافية، والصادقة من وجهة نظره هو على الأقل.

وقد لخص أحد أشراف العجم بعض هذه الأسباب، حين داهمته علة الموت فقال:

(١) الدكتور زكريا إبراهيم: تأملات وجودية ص٢١٤.

«ما ظنكم بمن يقطع سفراً قفراً بلا زاد، ويسكن قبراً موحشاً بلا مؤنس ويقدم على حكم عادل بلا حجة!» [(١)].

وقريب من هذه الأسباب ما جرى على لسان حجر بن عدي، حينما أحضر لكي يقتل، فسأل قاتليه أن يمهلوه حتى يصلي ركعات، وظهر منه جزع شديد فقال قائل: أتجزع؟ فقال: وكيف لا أجزع! سيف مشهور، وكفن منشور، وقبر محفور، ولست أدري أيؤديني إلى جنة أم إلى نار » [(٢)].

وهذه الأسباب وغيرها، هي مدار حديثنا فيما يلي، إذ نحاول أن نتعرف المسوغات الأساسية لخوف الإنسان من الموت:

١- غريزة حب البقاء وكراهية الفناء:

من أبرز السمات العامة المميزة للشخصية الإنسانية، حبها للبقاء وأنها على ذلك جبلت،فهذا الحب غريزة أساسية،أصيلة وراسخة في الفطرة البشرية، وضد البقاء الفناء وما دام البقاء محبوباً للإنسان، فضده وهو الفناء، مكروه.

ويعلل إخوان الصفاء هذه الغريزة « بأنه يوجد في المعلول دائما شيء من العلة، دلالة دائمة عليه، ولما كان الله علة الوجود لذاته، وهو دائم البقاء لا يعرض له شيء من الفناء، جبلت الموجودات على حب البقاء، وكراهية الفضاء » [(٣)].

ويرى الإمام الغزالي أن المحبوب الأول للإنسان هو نفسه وذاته، أو الأنا الشخصية، ومعنى حبه لنفسه، أن في طبعه ميلا إلى دوام وجوده ونفره من عدمه وهلاكه، إذ إن المحبوب للطبع هو الملائم للمحب وأي شيء أتم ملائمة من نفسه ودوام وجوده؟ وأي شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه «فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ويكره الموت» [(٤)].

---

(١) المبرد: الكامل جـ٢ / ١٦٦.

(٢) المبرد: الكامل جـ٤ / ٨٢ وقد أورد الاصفهاني قصة مقتل حجر بن عدي كاملة (الأغاني جـ١٧ / ١٣٣- ١٥٢).

(٣) عمر الدسوقي: إخوان الصفا ص١٦٦.

(٤) الإحياء جـ٤ / ٢٩٧.

ثم يعود الإمام الغزالي ليؤكد على هذه الفكرة: «تأصل حب البقاء في النفس البشرية» بأنها هي السبب الأساسي لكراهية الفناء، حتى لو أن الإنسان أذا دعى إلى الموت بدون ألم أو سكرات، أو حتى بدون ثواب وعقاب، فإنه لن يرضى بذلك، وسوف يكون كارها لهذا الموت «فالهلاك أو العدم ممقوت، ودوام الوجود محبوب»[1].

ويتأمل أبو حيان التوحيدي مسألة غريزة البقاء، ويرى فيها ما رأى الإمام الغزالي محاولا أن يستشف السر وراء الملائمة المشار إليها في كلامه، إذ يقرر أن البقاء نفسه أمر مختار ومراد، لأنه يعطى للشخصية الإنسانية وجودا متصلا ومستمرا، والوجود كريم وشريف، لذلك فهو مرغوب، وضده العدم، رذل خسيس والإنسان عادة يتخلق بالتوجه إلى الشيء الكريم، والجنوح عن الخسيس[2].

ولا يقنع أبو حيان التوحيدي بهذا، بل يحاول أن يستشف السر وراء الستر أي سبب غريزة البقاء فيقرر أن سبب هذا العشق، هو أن الإنسان جزء من هذا العالم: «مبدؤه منه ومنشؤه فيه، وتولده عنه»[3]، ومن ثم فهو جزء حي متوتر قلق يرتبط معه برباط لا ينفصم هو هذا الحبل السري الموصول برحم العالم فيستقي منه المادة التي تقيم أوده، كما تستمد عروق الأشجار ماءها من أعماق الأرض.

والنتيجة الحتمية، قوة الجذور العميقة التي تربط الإنسان بهذه الأرض وهذا العالم بأكمله.

٢- مباهج الحياة:

إذا كان حب الحياة غريزة، فإن هذه الغريزة تقوى وتستفحل، كلما تعرف الإنسان شتى جوانب الحياة ومارسها في سلوكه اليومي وألم بطيباتها، ومباهجها، حتى خلال أوائل مراحل الإدراك. ثم يتطور الحب إلى تعلق فعشق فهيام.

الحياة في مجملها جميلة حلوة خضرة، كثيرة مباهجها، وفيرة خيراتها لجاذبيتها نكهة

---

(١) المصدر السابق ص٢٩٧ ،ص٤٥٦.

(٢) الهوامل والشوامل ص٧٤.

(٣) الهوامل والشوامل ص٢٤٩.

عجيبة خلابة. والإنسان يعب منها بلا كلل ولا ملل، لا يتوقف نهمه عند حد من مشرب أو مأكل أو جنس أو ما سوى ذلك من متاعها الذي لا يكاد ينفد ما دامت به طاقة، بل يغوص إلى أعماقها، ينعم بما أفاض الله عليه من نعم، وما منحه من عطاء، باحثا عن المزيد.

وقد تحدث القرآن الكريم عن العطاء الإلهي للإنسان في هذه الحياة وندبه إلى أن يتمتع بهذه النعم الإلهية في اعتدال وتوسط، فقال عز من قائل: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۞ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[(١)].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۞ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [(٢)].

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [(٣)].

وتصف السنة النبوية، في شمول وإحاطة، مباهج الحياة المتعددة، فيقول الرسول ﷺ: «**إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها**»[(٤)].

ويقول: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون. فاتقوا الدنيا واتقوا النساء»[(٥)].

ويقول: «إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي: المال»[(٦)].

هذا المال، وشدة حرص الناس عليه، وتقاتلهم للظفر به في الدنيا، يعد – مع ما يعد – من أسباب جزع القلوب لتركه. وهذا أيضا ما ملأ قلب مالك بن الريب من الهم

(١) سورة الأعراف الآية ٣١، ٣٢.
(٢) سورة إبراهيم الآية ٣٤،٣٣.
(٣) سورة القصص الآية ٧٧.
(٤) رياض الصالحين ص٢١٣.
(٥) رياض الصالحين ص٢١٣.
(٦) المصدر السابق ص٢١٩.

والحزن حينما دنت منيته فأنشد يقول:

غداة غد يا لهف نفسي على غد إذا أدلجوا عني وأصبحت ثاويا
وأصبح مالي من طريف وتالد لغيري وكان المال بالأمس ماليا(١)

ويقول أبو العتاهية في وصف جمال الدنيا:

لعمر أبي إن الحياة لحلوة وللموت كأس يالها ما أمرها
وإني ممن يكره الموت والبلى ويعجبه ريح الحياة وطيبها (٢)

والشاعر على زهده، وتجافيه عن أكثر ملذات الحياة، فإنه يتحدث عنها حديث خبير، لأنه خبر مذاقها الحلو في بدء حياته، وتقلب في مباهجها وثمل من كأسها. وهذا ما أشار إليه سقراط لمحاوره: إذا رأيت رجلا يجزع من اقتراب الموت كان جزعه دليلا قاطعا على أنه محب للجسد، وللمال وللقوة (٣).

ويصفها - أي الدنيا - أبو حيان التوحيدي الذي حرم من لذاتها بعد أن رآها رأي العين، وتاق إليها، فلم يظفر بكثير أو قليل، وقد أوصدت في وجهه الأبواب، وتحاشاه الوزراء والأمراء فيقول: إن الحياة محبوبة لا سيما إذا كان معها صحة البدن، واعتدال المزاج، ووجود الكفاية من الوجوه الحسنة الجميلة، هذه الأشياء جميعا تصلنا بأسباب قوية بالسعادة القصوى وتحصيل الصورة المكتملة، وهذا كله محبوب يؤثره الإنسان، ومن ثم فالموت رديء مكروه، لأنه يقطع طريق الإنسان نحو استكمال السعادة وإتمام الفضيلة ويفوته أمراً عظيماً، فالجزع من الموت في هذه الحالة واجب وسببه بين واضح (٤). إذا فمن حق الإنسان الذي تمتع بهذه الطيبات، وذاق حلاوتها، ومرح في حدائق الحياة الوارفة، وتقلب في ظلال وثمار رياضها الغناء، أن يخاف أي خوف إذا حان رحيله إلى المصير المجهول

(١) القالي: ذيل الأمالي والنوادر ص١٣٧.
(٢) ديوان أبي العتاهية ص٢٠٨.
(٣) محاورة فيدون ص١٢٩ (محاورات أفلاطون).
(٤) الهوامل والشوامل ص٧٤ بتصرف.

٣- فراق الأهل والأحباب:

من عوامل حب الحياة، وعشق الإنسان لها، وتشبثه بجذورها الواهية، هذه الروابط الروحية القوية التي تربطه بالآخرين وفي مقدمتهم أهله الأقربون، وأحباؤه وأصدقاؤه، وقد جمع القرآن الكريم بإشارة وجيزة بين هذا السبب والذي قبله، إذ يقول:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[١].

ولأن المولى سبحانه يعلم أغوار النفس البشرية، وتعلقها الشديد بأسباب الحياة، فقد عاد إلى ذكر هذه الأسباب المتنوعة مجتمعة، وبين مدى عشق الإنسان لها، وولهه بها، حتى إنها تشغله عن أعظم أمر إلهي حيال الجماعة المسلمة، وهو الجهاد في سبيل الله. فقال عز اسمه مصدرا بالأهل والأحبة: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٢].

وقد عبر الشعراء بوضوح عن هذا السبب من أسباب خوف الموت. فهذا امرؤ القيس، يفتش في نفسه عن السبب الأساسي لخوفه من الموت، فلا يراه الموت ذاته، بل الموت بعيدا عن أرض أهله وأحبائه!! وذلك إذ يقول:

ولو أني هلكت بأرض قومي ... لقلت الموت حق، لا خلودا[٣]

وهذا السبب بعينه هو الذي أجرى دموع مالك بن الريب، وزاده هما على هم، وهلعا على هلع استمع إليه إذ ينتحب:

غريب بعيد الدار ثاو بقفرة ... يد الدهر معروفا بأن لا تدانيا

أقلب طرفي حول رحلي فلا ... أرى به من عيون المؤنسات مراعيا

وبالرمل منا نسوة لو شهدنني ... بكين وفدين الطبيب المداويا

---

(١) سورة الكهف الآية ٤٦.

(٢) سورة التوبة الآية ٢٤.

(٣) ديوان امرؤ القيس ص ٨٧.

وما كان عهد الرمل عندى وأهله ذميا ولا ودعت بالرمل قاليا
فمنهن أمي وابنتاي وخالتي وباكية أخرى تهيج البواكيا[1]

وهذا أبو العتاهية لم تغب عنه أيضا – وهو يدعو إلى طريق الزهد والتجافي عن ملذات الحياة – أسباب تعلق الإنسان بها، وكراهيته للموت فتراه منذره بأنه سيخلف ذلك كله وراءه:

إذ يقول:

غير الموت شيء جليل يترك الدور خرابا ويبابا[2]

ويقول:

ولقد رأيت الموت يفرى تارة جثث الملوك وتارة يتخبط
فتألف الخلان مفتقدا لهم ستشط عمن تألفن وتشحط
وكأنني بك واهي القوى نضوا تقلص بينهم وتبسط[3]

أما الفلسفة في هذا المجال، فبحرها متلاطم الأمواج، وروافدها مترعة بالآراء والأفكار.

وأول ما تقابله في لججها العميقة، الشيخ الرئيسي ابن سينا، إذ إنه أفرد رسالة كاملة للبحث عن كيفية «دفع الغم من الموت»، وحلل فيها الأسباب المختلفة لمخاوف الإنسان منه وعدد منها «الأسف على ما تركه من مال وولد وأهل»[4].

ولكن الذي ضرب على هذا الوتر، فأثار الشجون، هو قديس المسيحية وفيلسوفها الكبير، القديس أوغسطين إذ كان خاطر فراق الأحبة من أكبر المنغصات في حياته، وهو يسجل ذلك في «اعترافاته» إذ يقول:

«كنت تعسا ككل من يرتبط بصداقات مع من حتم عليه أن يموت، فإنه يشعر لدى

(١) ذيل الأمالي والنوادر ص١٣٨.
(٢) ديوان أبي العتاهية ص٥٣.
(٣) المصدر السابق ص٢٤٤، وتشحط أي تبعد.
(٤) رسالة في دفع الغم من الموت ص٤١.

فراقه بحزن عميق، ويحس بالشقاء الذي سوف يحدثه فراقه فيه قبل أن يفقده، إن حياة الواحد بدون الآخر، أصعب عليه من الموت بعينه كلما أحببت صديقي، زادت كراهيتي للموت، وخوفي منه، لأنه حرمني إياه كعدو قاسي جدا، يتأهب لابتلاع جميع البشر بطرفة عين كما ابتلع صديقي»[١].

ويرى باحث معاصر أن من هذه العوامل « ما يشعر به (الإنسان) من لذعة إذا تصور فراق الأهل والخلان ويعتقد أن هذا النوع من الخوف عند الشيوخ أكثر منه عند الشباب[٢].

ويبالغ شاعر معاصر كان يعيش بيننا منذ أمد قريب، هو الشاعر كامل الشناوي (ت ١٩٦٥م) إذ يرى – بعد طول تأمل وكثرة تساؤل – رجوع الخوف من الموت إلى هذا السبب وحده، وذلك إذ يقول: « لماذا نفزع من الموت وهو حقيقة لا تقبل الجدل؟ ثم يجيب: « إن فزعنا ليس من الموت، ولكن من الفراق ... فراق من نحبهم من الأعزاء علينا »[٣].

٤- الخوف من آلام الموت:

من أخوف ما يخاف منه الإنسان تلك المعاناة التي يعانيها عند الموت، وما هنالك من آلام رهيبة وكرب شديد، وكم شهدنا نحن، ونشهد من ذلك عند وداع أحبابنا في اللحظات الأخيرة من حياتهم، على بعد البون من التجربة الحقيقية والمشاهدة الجانبية

إنها للحظات أو ساعات شديدة الوطأة لا يعلم إلا الله مدى ما فيها من معاناة، والذي يبدو لنا مظاهر- ليس إلا- في تقلص الوجوه وذعر العيون وارتجاف الأوصال.

ولكي تتضح أبعاد هذه الصورة المؤلمة، نطالع بعض الآيات القرآنية التي رسمت صورة حقيقية لكرب الموت وهوله على النفس البشرية وعلينا أن نتدبر دلالة هذه الآيات، إذ كان مصدرها هو العليم الخبير ببواطن النفس البشرية، التي تتكشف تماما أمام خالقها

---

(١) الاعترافات ص٦٤.

(٢) أحمد أمين : فيض الخاطر جـ٤ ص٢٠٧.

(٣) بين الحياة والموت ص٥٤.

الكريم في جميع حالاتها، وفي حالة الموت بخاصة يقول المولى سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ..﴾ (١).

- ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾(٢).

- ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ (٣).

- ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾(٤).

- ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ (٥).

- مشهد الاحتضار بذاته ترتجف له النفس البشري، وإظهار الملائكة في المشهد يزيد النفس ارتجافا(٦).

وهذا المشهد له أبعاد متعددة صورتها الآيات الكريمة: فالخوف والهلع هذا الذي يسيطر على النفس عند معاينة علامات الموت، والهول المهول هناك في حشرجة الصدر، وتقطع الأنفاس، وشدة النزع الذي يقول الرسول ﷺ في وصفه أنه: مثل سحب الشوكة على ثوب الحرير.

وتأتي أخيرا «سكرة الموت» لتعبر بأوجز عبارة عن مدى انهيار الإنسان إذ ذاك وذهاب قوة احتماله، وليس يخفى علينا أنه - تقريبا - نفس التعبير الذي استخدمه الرب سبحانه في وصف هول يوم القيامة مما يزيد الصورة رعبا وإيلاما ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾(٧).

وتقول الروايات أن عمرو بن العاص - حينما أخذته سكرات الموت في مشهد الاحتضار، وأصبحت الأنفاس معدودة - قال: « أجد السماء كأنها مطبقة على الأرض،

(١) سورة الأنعام الآية ٩٣.
(٢) سورة الأنفال الآية ٦.
(٣) سورة الأحزاب الآية ١٩.
(٤) سورة محمد الآية ٢٠.
(٥) سورة ق الآية ١٩.
(٦) في ظلال القرآن جـ٥ / ٤٤٩.
(٧) سورة الحج الآية ٢.

وأنا بينهما، وأراني كأنما أتنفس من خرت إبرة »[١].

وقيل: «كان سفيان الثوري إذا قال له بعض أصحابه إذا سافر: أتأمر بشغل؟

يقول: إن وجدت الموت فاشتره لي! فلما قربت وفاته كان يقول: كنا نتمناه فإذا هو شديد!! »[٢]

وهذا هو الذي يشير إليه أبو العتاهية إذ يقول:

كل نفس ستقاسي مرة | كرب الموت فللموت كرب[٣]

وللمرء عند الموت كرب وغصة | إذا مرت الساعات قرين عهدها[٤]

أما ابن سينا فيذكر «ألم الموت» من ضمن العوامل المخوفة للإنسان في رسالته آنفة الذكر.

وحجة الإسلام الإمام الغزالي يغوص في أعماق النفس البشرية، ويكشف عما هي جديرة به لو كانت تعرف كنه سكرات الموت، إذ يقول: « لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب، سوى سكرات الموت بمفردها، لكان جديرا بأن يتنغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، ويفارقه سهوه وغفلته»[٥].

وهكذا نرى بلا شك أن آلام الموت وسكرته، وعذاب خروج الروح من الجسد هي من بين العوامل التي تقود الإنسان – طوعاً أو كرهاً – إلى الخوف من الموت.

٥- خطايا الإنسان في الحياة:

ميول الإنسان الشريرة، واستعداداته الكامنة لفعل الشر، أحيانا تتغلب على جوانبه الخيرة. والإنسان وهو على طريق الحياة يعتلج في داخله صراع دائم بين الخير والشر، وكثير من الناس ينحرفون عن الجادة، ويهبطون مع جاذبية المادة إلى قرار سحيق،

---

(١) المبرد: الكامل جـ١ / ٢٦٧.
(٢) الرسالة القشيرية جـ٢ / ٥٩٠.
(٣) ديوان أبي العتاهية ص٤٣.
(٤) المصدر السابق ص١٥٠.
(٥) الإحياء جـ٤ / ٤٦١.

فيرتكبون الكثير من المعاصي، ويحملون أوزارا، بها تصبح علامات سوداء تقض مضاجعهم، وأشباحا مخيفة تطاردهم ليل نهار، وأمثال هؤلاء الذين استيقظت ضمائرهم، وانتبهت نفوسهم يجزعون من الموت جزعا شديدا كلما تمثل لهم ما وراءه من قدوم على الحكم العادل الذي يقول في كتابه المحكم: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1].

وقد تحدثت آيات القرآن الكريم عن وعيد الله سبحانه لمرتكبي الكبائر ومقترفي المعاصي، وتنبيه الإنسان لغواية الشيطان ومكائده وتذكيره بمكره السابق بآدم أبي البشرية، ثم يحذرهم من أفاعيله وأباطيله، مذكرهم بيوم الحساب حيث لا تنفع معذرة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً﴾[2].

- «﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۞ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[3].

- وفي السنة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم فإن كانت صالحة قالت: «قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت لأهلها: يا ويلها أين تذهبون بها يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ولو سمع الإنسان لصعق»[4]. وإذا انتقلنا إلى الشعر، نقرأ في هذا الصدد ما يقوله أبو العتاهية:

كل نفس ستقاسي مرة ... كرب الموت، فللموت كرب
وحساب وكتاب حافظ ... وموازين،ونار تلتهب
وصراط من يقع عن حده ... فإلى خزي طويل ونصب[5]

---

(١) سورة الزلزلة الآية ٧، ٨.
(٢) سورة النساء الآية ٩٧.
(٣) سورة المؤمنون الآية ٩٩.
(٤) رياض الصالحين ص٣٦٩.
(٥) ديوان أبي العتاهية ص٤٣.

وكبار رجال التصوف – على ما هم عليه من الزهد والتقى – راعهم هذا السبب، من أسباب الخوف من الموت، وتوقفوا أمامه طويلا، فأدلوا فيه بدلوهم:

«قال رجل لبشر الحافى (ت٢٢٧هـ): أراك تخاف الموت! فقال: القدوم على الله عز وجل شديد»[١].

ويقول ابن فورك لأحد عواده في مرضه، وقد دمعت عيناه: تراني أخاف من الموت؟ إنما أخاف مما وراء الموت[٢].

وسئل الشبلي (ت ٣٣٤هـ) لما تصفر الشمس عند الغروب؟ فقال: لأنها عزلت عن مكان التمام، فاصفرت لخوف المقام، وكذا المؤمن إذا قارب خروجه من الدنيا أصفر لونه، لأنه يخاف المقام[٣].

وابن سينا في الرسالة التي وقفها على مناقشة مخاوف الإنسان من الموت يقول: « من يخاف الموت لأجل العقاب، فليس يخاف الموت، بل يخاف العقاب، والعقاب إنما يكون على شيء باق منه بعد الموت فهو إذن خائف من ذنوبه لا من الموت، ومن خاف عقوبته على ذنب وجب عليه أن يحترز ذلك الذنب ويجتنبه»[٤].

ولا ينسى هذا أبو حيان التوحيدى وهو بصدد البحث عن أسباب جزع الإنسان من الموت فتراه يقول: إن من قوى ظنه واستحكمت بصيرته في عاقبته ومعاده، ولكنه لم يقدم ما يعتقد أنه يسعد به، ولم يتأهب بأهبته، ولا استعد له عدة، فهو يكره الموت، ويجزع منه ولا يسترسل إليه»[٥].

والحقيقة أن هذا ما نراه في حياتنا اليومية، والعيان أصدق شاهد، فكثيرون هم الذين نراهم يتملكهم الخوف والجزع من الموت، بعد أن أجرموا في حق أنفسهم وحق

(١) الرسالة القشيرية جـ١ / ٣٩١.
(٢) المصدر السابق والصفحة.
(٣) الرسالة القشيرية جـ١ / ٣٩٧-٣٩٨.
(٤) رسالة في دفع الغم من الموت ص٤٠.
(٥) الهوامل والشوامل ص٧٥، وأيضا أحمد أمين: فيض الخاطر جـ٤/ ٢٠٧.

مجتمعاتهم، ولم يقدموا لغدهم شيئا من الأعمال الطيبة، لذلك زادت حسرتهم، وقويت هواجسهم، وسيطرت المخاوف على قلوبهم وعقولهم. لما استيقنوا من أن وراء ذلك كله الحساب العسير والعقاب المرير.

٦- تصور الإنسان لحاله في القبر:

تعد عملية التصور، إحدى العمليات العقلية الباهرة التي يستطيع العقل الإنساني بواسطتها رسم أو استعادة أية صورة لأي حقيقة من حقائق الحياة أو ما بعدها رآها أو سمعها، أو قرأ عنها.

وعادة ما يرى الإنسان، سلسلة الأحداث المخيفة التي تلم بالميت بعد أن يموت، وربما كانت الواقعة لا تعنيه إذا توقفت الأمور عند حد نزولها بالغير، بيد أن المشكلة ليست بهذه البساطة إذ إنه يدرك إدراكاً كاملاً، أن ما يلم بالغير اليوم سيلم به غداً، وكل زاد الأحياء من تصورها إنما هو مستفاد من مشاهدات سطحية لقبر نبش، أو قراءة عابرة، لقصص مكتوب أو شعر منظم، أو عظات تتناقل ينوء بها القلب.

فبعد الموت والدفن تبدأ سلسلة تغيرات عظيمة تصيب الجسم الإنساني ليس أقلها هجوم هوام الأرض عليه، واقتحام الدود أركانه، ثم ما أسرع أن يتحول هذا الجسم الذي كان بالأمس يفيض حيوية ونشاطاً، إلى كومة عظام نخرة، تعافها النفس وتقذى بها العين، ويألم لها الخاطر. حتى لقد تعلل بهذا في استحالة المعاد الجثماني منكروه من الفلاسفة.

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾(١)، ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (٢).

هذه الصورة المروعة لحالة الإنسان في قبره، لا تنفك تحتل مساحات كبيرة في عقله وفكره ما دام حيا، فيدرك أول ما يدرك أن الأمر جد عظيم، ويبدو له الموت بشعا مخوفا، لأنه بوابة القبر الذي هذا حال ساكنيه، فكيف بالقبر نفسه، وصدق رسول الله ﷺ: « ما

(١) سورة المؤمنون الآية ٣٥.
(٢) سورة المؤمنون الآية ٨٢.

رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه »[(١)].

قال مجاهد: أول ما يكلم ابن آدم بعد الدفن حفرته، تقول: أنا بيت الدود وبيت الوحدة، وبيت الغربة، وبيت الظلمة [(٢)].

وقال عمر بن عبد العزيز، وهو ينظر إلى القبور: «هذه قبور آبائي بنى أمية، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا لذاتهم! أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات، وأصاب الهوام أبدانهم»[(٣)].

أما الشعر والشعراء هنا، فلهم موقفهم، ورؤاهم الخاصة، ومالك بن الريب الذي تعرفنا عليه سابقاً يعاود سكب عبراته الحارة على نفسه، وهو يتأمل حاله بعد الموت، وحيدا في حفرة مقفرة بين التراب والحجارة، تعصف بها الريح، وقد تقطعت أوصاله وبليت عظامه حتى عادت إلى سيرتها الأولى حفنة من التراب:

وقوما على بئر السمينة أسمعا بها ... الغر والبيض الحسان الروانيا
بأنكما خلفتماني بقفرة ... تهيل على الريح فيها السوافيا
ولا تنسيا عهدي خليلي بعد ما ... تقطع أوصالي وتبلى عظاميا
إذا مت فاعتادى القبور وسلمى ... على الرمس اسقيت السحاب
على جدث قد جرت الريح فوقه ... ترابا لسحق المربياني هابيا [(٤)]
رهينة أحجار وترب تضمنت ... قرارتها منى العظام البواليا [(٥)]

أما أبو العتاهية الذي يصحبنا في هذه التأملات فهو دائم التذكير بالوحدة الموحشة والأصدقاء الجدد من حشرات الأرض، ودود التراب:

---

(١) الإحياء جـ١ / ٢١٠ ، قال الترمذي هذا حديث حسن غريب ، سنن الترمذي جـ٤ / ٥٥٤.
(٢) الإحياء جـ١ / ٢١٠.
(٣) المصدر السابق ص٢١١.
(٤) ذيل الأمالي والنوادر ص١٣٧ ، السمينة موضع ، والمرنباني كساء من خز ويقال مطرف من وبر الإبل ، هابيا : هبا يهبو وهو التراب.
(٥) القالي : ذيل الأمالي ص١٣٨ ، ورهينة أحجار : أي في القبر على الترب والحجارة القرارة : بطن الوادي حيث يستقر الماء فضرب به مثلا للقبر وبطنه.

كـأن الأرض قـد طويـت عليـا وقـد أخرجـت ممـا في يديـا
كـأني يـوم يحثـو التراب قـومي مهـيلا لم أكـن في النـاس حيـا
كـأن القـوم قـد دفنـوا وولـوا وكـل غـير ملتفـت إليـا
كـأني صرت منفـردا وحيـدا ومرتهنـا هنـاك بـما لديـا [١]

فإذا وقف أمام القبور تساءل، من باب تجاهل العارف، وتوجع المفجوع:

إني سألت القبر ما فعلت بعدي وجوه فيك منعفرة فأجابني: صيرت ريحهم تؤذيك بعد روائح عطره وأكلت أجساداً منعمة كان النعيم يهزها نضرة لم أبق غير جماجم عريت بيض تلوح وأعظم نخرة[٢].

ويقول أبو العلاء المعري:

كم صائن عن قبلة خده سلطت الأرض على خده[٣]

ونختم صحبتنا مع الشعراء؛ بالشاعر الفيلسوف عمر الخيام (ت١١٢٣م) وهو يتأمل جمال الحياة، وبهجة الوجود، فيدرك أن مصدر هذا الجمال هو قبح الموت.

فالورود التي تحيط به بحمرتها القانية، ربما استقت ماؤها من دم أحد الملوك.

والزهور العطرة التي تملأ حدائق الحياة، لعلها نبتت فوق رأس ميت كان يوما رائع الجمال.

وهذه الحشائش الخضرة اليانعة التي تسر الناظرين، من يدري؟؟ من أي شفة إنسانية، أو مهجة عذراء، كانت يوما رائعة الحسن.

ها غمام السماء يسكب سكبا
كالأحبا على قبور الأحبا
عبرات يزهو بها المرج خصبا

(١) ديوان أبي العتاهية ص٤٨٠.
(٢) المصدر السابق ص٢٠٤.
(٣) القصيدة الحكيمة (نقلا عن كتاب أنيس المقدسي : أمراء العصر العباسي ص٤٢٦).

وكما شاقنا وراق العيانا

زهر روض نرنو إليه الآنا

ليت شعري إذ نحن في الروض زهر

أي عين نروقها إعجابا [١]

* * *

حيث تلقى الورد النضير الجميلاً

فمليك هناك خر قتيلاً

فادرإما قبلت خدا أسيلاً

ولكم خلت ما اقتطفت بنفسج

وترفقت أنه بين عوسج

وهو خال نام بخد فتاة

بدر حسن في ظلمة القبر غابا [٢]

* * *

وثغور الأزهار ياذا الحبيب

من ثغور سناؤها محجـوب

لك قلب وفي الأديم قلـوب

ضجعة اللطف فوق هذا النبات

فهو نام من أكبد النائمات

في مهود فيها السبات عميق

(١) عمر الخيام : رباعيات عمر الخيم ص٥٣.

(٢) عمر الخيام : رباعيات عمر الخيام ص٥٤.

لا مفيق منه بهن أهابا [١].

ولعلي أوفي ما يتصل بهذا السبب، تلك الصورة الواضحة، المعالم التي يرسمها الإمام الغزالي على ضوء تصوره لتفاصيل دلالة الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ..﴾ وذلك إذ يقول:

«معناه أن يسلب روحه وسمعه وبصره وقدرته وحسه، فيعود جمادا كما كان أول أمره، لا يبقى إلا شكل أعضائه، وصورته لا حس فيه ولا حركة، ثم يوضع في التراب، فيصير جيفة منتنة قذرة.. ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه ويصير رميماً رفاتاً، ويأكل الدود أجزاؤه فيبتدي بحدقتيه فيقلعها، وبخديه فيقطعها، وبسائر أجزائه فيصير روثا في أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل إنسان. وأحسن أحواله أن يصير ترابا يعمل منه الكيزان والبنيان»[٢].

***

(١) عمر الخيام: رباعيات عمر الخيام ص٥٧.

(٢) الإحياء جـ٣ / ٣٥٩ وأيضا جـ٤ / ٤٥٧.

الفصل الخامس

حكمـــــة المـــوت

الفصل الخامس

حكمة المـوت



تمهيد

هذا العالم الذي نعيش فيه، مخلوق من قبل قوة عاقلة قادرة فاعلة حولته من غير وسيط ولا آلة من العدم إلى الوجود.

وهذه الحياة رحلة قصيرة غير محمودة العواقب إلى خاتمة المطاف، وهي تشبه همزة الوصل، أو الجملة الاعتراضية التي تنتهي بنا إلى جملة طويلة أكثر بلاغة، وأحلى ألفاظاً، وقد اقتضت الحكمة الإلهية البالغة أن تكون الحياة الدنيا دار ابتلاء واختبار، ومعبراً إلى حياة أخرى، إما إلى جنة وإما إلى نار.

إنما ينقلون من دار أعمال   إلى دار شقوة أو رشاد

على حد قول المعري:

وهذه الدار الفانية مزيج من الألم واللذة، والحزن والفرح، والإثم والعدوان والبر والتقوى، ليكون لكل ذلك ما وراءه حيث يقر كل في نصابه، وإلا انعكست براهين الحكمة، وموازين العدل.

أولا: على سبيل التعميم:

أ- حكمة الأفعال الإلهية:

أفعال الله سبحانه معللة بالأغراض والغايات ومصالح الكون المترتبة عليها شاهدة على حكمته تعالى، ناطقة بتنزهه عن العبث والغفلة. وبوسعنا نحن أن نستشف الكثير من ذلك وراء التكاليف الإلهية من أوامر ونواه، بل وراء جميع أفعال الخلق والتكوين.

والقرآن الكريم نفسه أصدق شاهد: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ [(١)].

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [(٢)].

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾ [(٣)].

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ [(٤)].

وقديما قبل خلق آدم أبي البشر تساءلت الملائكة عن سر خلقه، والغاية التي تعود بالنفع من ورائه، مع أن المنتظر من الإنسان أن يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فأجابهم المولى سبحانه: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

أي أن الأفعال الإلهية، مهما بدا لنا من غموض حكمها، والأسرار الكامنة وراءها، أو خيل إلينا أنها خواء من كل ذلك، فليس الأمر في الواقع على ما نخال أو نتخيل، وإنما هي ضحالة علم الإنسان، بل ومن هم أكبر من الإنسان، بجانب علم من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وإذا كان أنزال الموت، بالإنسان، ليس إلا فعلا من أفعاله تعالى، فلا يمكن أن يكون هو وحده من بينها خلواً من الغاية والحكمة، وقد علمنا أن لا شيء من أفعاله على هذا النحو.

وإذن فعلينا أن نقر باللسان، ونصدق بالجنان، أن إنزال الموت بالإنسان له غايات عظيمة وحكم جليلة. وهذا ما سوف نحاول فيما يلي أن نسبر بعض أغواره، ونزيح بعض أستاره.

ب- عدالة إنزال الموت:

من منظور بشري أرضي قاصر، ربما يخيل للإنسان أن هذا الإنزال شر الشرور، وأمر بالغ القسوة لا يمكن أن يعتذر عنه، أو ظلم صراح، وأحياناً يتساءل: أما كان من الممكن خلق هذه الحياة مجردة من هذا الألم الذي ينغص صفوها كي يستطيع الإنسان أن يعيش

(١) سورة آل عمران الآية ١٩١.
(٢) سورة الحجر الآية ٥٨.
(٣) سورة الدخان الآية ٣٨.
(٤) سورة المؤمنون الآية ١١٥.

بلا توتر أو قلق؟

ومما يروى عن أبي العلاء المعري الأديب المتفلسف - والعهدة على الرواة - انحراف تصوراته فيعد الموت ظلما من الباري، ويعاتب المولى عتاباً أحمق جاهلاً:

ونهيت عن قتل النفوس تعمد وبعثت أنت لقتلها ملكين

وزعمت أن لنا معادا ثانيا ما كان أغنانا عن الحالين[1]

هذا الإنسان في لحظات التساؤل المتسرعة: نسي أن الخلق كله قد قدر منذ الأزل تقديرا محكما حسب نواميس إلهية وقوانين ضابطة: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[2]. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[3].

أي قدر حجمه وشكله، وقدر وظيفته وعمله، وقدر زمانه ومكانه، وقدر تناسق مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير»[4].

وإيمان البشر بصدق هذه القوانين - والموت ليس بدعا ولا شذوذاً- ينفي عن أنفسهم حالة الشك فيها.

على أن خلق الطبيعة بدون خصائصها الأساسية ولوازمها، ممتنع، فإن الطبيعة هي هي، ووجود الملزوم مرتبط بوجود لازمه، ولو خلقت الحياة على غير هذا النحو، لكانت حياة غير هذه الحياة[5]. وهذا ما نعنيه بالعدالة الإلهية أي عدالة فعل الموت الملازم لوجود الإنسان الناقص.

وأول سمة من سمات هذه العدالة، أن الفعل صادر من الله، فلا يتطرق إليه شك، وأنه يعم الجميع، وهم أمامه سواء، وهذا أمر قد فرغنا منه في بحث حتمية وما إلى هذه الحتمية.

---

(١) معجم الأدباء جـ٣ / ١٧٤.
(٢) سورة القمر الآية ٤٩.
(٣) سورة القمر الآية ٤٩.
(٤) في ظلال القرآن جـ١٩ / ١٣٨.
(٥) الزيني: ابن القيم وآراؤه الكلامية ص٢١٥.

ثانيا: على سبيل التخصيص:

أ- بعض الحكم الملتمسة لحادث الموت:

١- جهلنا بوقوعه:

على الرغم من قساوة الموت، وما يترتب عليه من نتائج مؤلمة ومحزنة، فقد كان من الممكن أن يكون أشد قساوة وفظاعة، لو كشف لكل واحد يوم أو مكان وقوعه أو الحادث الذي قد يظن عابرا والموت كامن فيه. لو تصورنا أن هذا ممكن لتوقفت حركة الإنسان في هذا الكون، وظل هلوعا ينتظر يوم الموت، يعد الأيام واحدا بعد الآخر، دون أن ينتج أو يبدع أو يخترع. وترتب على ذلك توقف حركة الحياة وظلت في بداياتها الأولى تعيش في عصور ما قبل التاريخ لم تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام. ولم يكن هنا وهناك ما نشاهده الآن من تقدم ورقي وازدهار وعمران ودول وحضارات.

فكل منا يعتقد اعتقادا جازما أنه سيموت، لكن ذلك لن يكون «الآن». ربما غدا أو ما بعد الغد وبين الغد وما بعده، تتقدم خطوات الإنسان في هذه الحياة، يبدعها، ويملأها حركة، ويطورها، ويبني الحضارات.

ومن ألطاف الرب تعالى، أن استأثر بهذا كله، فيما استأثر من علوم غيبية، وتركنا ننعم بأوهامنا، ونظن أن الحبل ما زال على الغارب، وهو قد أحاط بالعنق، وأوشك أن يأخذ بالمخانق: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

وفي هذا يقول أبو حيان التوحيدي: «ألا ترى أن علمنا لو أحاط بموتنا متى يكون؟ وفي أي وقت يقع، ومتى نغادر هذه الحياة، وعلى أي حال تحدث العلة أو المحنة النازلة بالبشر والبلاء الذي يحل بالنفوس، لكان ذلك مفسدة ليومنا، وأزمة لنفوسنا، ومحنة شديدة علينا، وألما مستمرا نكابده في نومنا ويقظتنا، ونهارنا وليلنا.

(١) سورة لقمان الآية ٣٤.

فانظر كيف زوى الله الحكيم هذا العلم عنا، وجعل الخيرة فيه لنا »[1]. وهذه نعمة كبرى كثيرا ما نذهل عنها، ولا نتوقف عندها نتدبر ما تنطوي عليه من رفق وحدب ثم نشكره سبحانه.

٢- استمرارية الحياة:

الحياة كما نراها سلسلة متصلة، ليس بوسعنا إدراك نهايتها: حركة مستمرة من النماء والذبول والتجدد والأفول، هذه الزهرة تذوي ثم تموت لكي ينمو برعم صغير يطل من ثنايا الأرض، ويرفع رأسه ليستقبل شمس الصباح، وهذا حيوان كاد أن ينفق، فيأوي إلى ركن بعيد كأنما يريد أن يلاقي الموت على انفراد بعد أن ترك ذرية تحمل نفس خصائصه، وبهذه الذرية تستمر السلالات والأجناس.

وما ينطبق على عالم النبات والحيوان الأدنى، ينطبق على الحيوان الأعلى وعلى الإنسان؛ فهذا شيخ يرقد على الفراش يحتضر، وحوله أبناء وأحفاد أي أن الحياة لا تتوقف، فضلاً عن أن تنتهي فيما يبدو لنا.

إنها أبداً يانعة في الجملة، كأنما من هذه الأجساد التي تثوى في أعماق الأرض، والأشلاء التي تختلط بتربتها، تستمد الأرض جودتها وخصوبتها لتغذي شجرة الحياة التي تورق وتزهر وتثمر وتنتج ثمارها، أو قل يتجدد عنفوان شبابها، ويستمر دولاب دورتها في حركة دائبة إلى أن يشاء الله أمرا كان مفعولا، لكأن كل ما في الحياة، وقود للهيبها المقدس، كي تظل الشعلة مضيئة وهاجة. فنحن نموت لكي يحيا آخرون، والآخرون يموتون لكي يحيا من بعدهم، وهكذا دواليك ولو فرضنا أننا مخلدون في هذه الحياة وأن الجيل الأول الذي صحب آدم مازال يعيش وكذلك الأجيال بيننا فأين هي الأرض التي تسع تلك البلايين التي تبدو بلا نهاية؟

من أين يأكلون؟ وكيف تتقدم الدول وتزدهر الحياة؟ إن البشر – في هذه الحالة – سوف يحاولون أن يخترعوا فعلاً مدمرا، يقوم مقام الموت كي يفنى البشر، ولا

(١) الإمتاع والمؤانسة جـ١ / ٢٢٤.

أظن أنهم قادرون!، ولقد صدق فيلسوف المعرة إذ يقول:

لعل الموت خير للبرايا   وإن خافوا الردى وتهيبوه

إن شيئا من الأمن تحت راية الموت هو الذي أتاح للبشرية مهلة من الوقت تسع لأعمال الفكر والتوصل إلى مبتكرات العصر.

يقول ديورانت: «ما لاحيلة إذا كان لا بد لنا من الموت من أجل الحياة؟ نحن أعضاء مؤقتون في جسم الجنس، وخلايا في بدن الحياة.

إننا نموت ونختفي لعل الحياة تظل في شبابها وقوتها، ولو أنا عشنا إلى ما شاء الله، لخمد النماء، ولم يجد الشاب له مكاناً على ظهر الأرض»[(١)].

وتقول مي زيادة (ت١٩٤١ م) «ما الأرض والبحار وأبعاد الأفلاك، سوى مدافن دهرية إنما هي في الوقت معامل توليد وتكوين نحن نخلد الحياة بفنائنا، وهي تفنينا بخلودها»[(٢)].

ويقول كامل الشناوي: «موت الأحياء تجديد للحياة يخلي مقاعد العجزة والمرضى والضعفاء لأحياء جدد قادرين، أصحاء أقوياء، ولو لم يكن الموت لتجمدت الدنيا على حالة واحدة، أو ضاقت بمن فيها بحيث لا يستطيع أحد أن يتحرك من مكانه»[(٣)].

إن الموت هو الطاقة الحقيقة التي تتزود منها الحياة، فتجدد شبابها وتواصل رحلتها للغاية المرسومة لها. نعم «في قلب الموت تتجدد الحياة نفسها»[(٤)].

٣- السام من طول الحياة:

هذا الإنسان الكائن الحي الراقي، يتميز عن باقي الحيوانات بكثير من الصفات عدد الخالق الحكيم كثيرا منها في كتابه الكريم؛ فهو كفور وعجول، وجهول، وهلوع، وهو أيضا ملول.

(١) مباهج الفلسفة جـ٢ / ٣٠٥.
(٢) ظلمات وأشعة ص٧٤.
(٣) بين الحياة والموت ص٣٧، ٥٤.
(٤) مباهج الفلسفة جـ٢ / ٣٠٥.

والملل حالة نفسية تعتري الإنسان نتيجة لرتابة الحياة وسيرها على منوال واحد، ونمط لا يتغير حتى لتتشابه أيامها ولياليها، وأحداثها، وتبدو مثل أوراق التوت، أو أمواج المحيطات، أو كحبات البازلاء المتشابهات.

هذه الحالة النفسية التي تعتري الإنسان، قد تصبح ملازمة له إذا امتد به العمر، وتغير الحال والأهل والخلان، ومضى من مضى، وبقى هو وحيدا أو شبه وحيد بلا عمل ولا دور، ولا نهي ولا أمر، يردد بينه وبين نفسه:

إذا ما مضى القرن الذي كنت فيهمو وخلفت في قرن فأنت غريب [١] وعندئذ لا يكون العيش منغصا فحسب، بل تصير الحياة نفسها عبئا ثقيلاً، وصدق الشاعر العربي القديم إذ يقول:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا – لا أبالك – يسأم [٢].

ومن يقول:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيدا؟ [٣]

ويقول قطرى بن الفجاءة:

ومن لا يعتبط يسأم ويهرم وتسلمه المنون إلى انقطاع[٤]

بل ربما أصبح هذا الشيخ المتهدم عبئا على أقرب الناس إليه فيبلغ به السأم منتهاه ويتمنى الشفاء من الحياة كأنها داء عضال أعيا على الطب والأطباء يقول الشاعر في هذا المعنى:

وكل الفكاهات مملولة وطول التعاشر فيه القلى
وكل طريف له لذة وكل تليد سريع البلى
ولا شيء إلا له آفة ولا شيء إلا له منتهى [٥]

---

(١) ديوان أبي العتاهية ص٣٤.
(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى ص٣٠، والمعمرين من العرب ص٦٦.
(٣) المعمرين من العرب ص٦١ وأيضا طه حسين : حديث الأربعاء جـ١/ ٤٨ وأيضا الأغاني جـ١٨ / ١٤٤.
(٤) ترجمته في تاريخ الأدب العربي ص٢٣٣ لبروكلمان.
(٥) ديوان أبي العتاهية ص٢٠.

وفي خضم بحر الملل، يصبح مطلب الموت مطلباً ملحاً، وهو الحل الأمثل لمشكلة الإنسان لكنه هنا قد يكون له بواعث أخرى للذين يبحثون عن دروبه: «قالت امرأة من المتعبدات: والله لقد سئمت من الحياة، حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقاً إلى الله تعالى وحباً للقائه»[١].

فالملل ليس وقفا على مرحلة الشيخوخة،بل قد يتسلل إلى نفوس الكثيرين من شباب ورجال في أوج القوة، وليس للحياة معه معنى ولا طعم، بل تفقد كل بهجتها ورونقها، وربما دفع إلى الانتحار تخلصا من عيش لا يطاق.

وفي هذه الحالة، إذا جاء الموت في موعده ليضع نهاية لحياة التكرار والملل، والضيق والضجر، يكون نعمة أي نعمة، وبلسما لكل داء.

على أني أحس أن مأساة الشيخوخة جديرة هنا بلفتة خاصة:

أ- مأساة الشيخوخة: [٢]

أعنى بمأساة الشيخوخة، حالة التغير الشامل من الناحيتين الجسمية والنفسية التي تعتري الإنسان حين يبلغ من الكبر عتيا، فتباعد بين ماضيه وحاضره، وتحوله إلى كائن حي غريب، فقد القوة الجسمية، والقدرة العقلية والتكيف النفسي، والتآلف الاجتماعي. أي أن مجموعة التغيرات تكون – على شمولها – كبيرة ورهيبة: فالعود الصلب القوي، قد ضوى وتضعضع، والوجه المشع برونق الصبا والحيوية، جف ماؤه، وزحفت عليه التجاعيد، وانطفأ بريق العينين فيه، والقلب الضاحك ملأته أحزان الدنيا – حتى ليكاد المرء يتساءل من أنا؟ لولا أن نفسه التي بين جنبيه تؤكد أنه هو هو، رغم كل شيء. فيردد بصوت هامس مشروخ، وعبرات منسكبة مع أحمد بن أبي بكر الكاتب:

من كان يرجو أن يعيش فإنني ... أصبحت أرجو أن أموت فاعتنقا
في الموت ألف فضيلة لو أنها ... عرفت لكان سبيله أن يعشقا [٣]

---

(١) الإحياء جـ٤ / ٣٦٠.

(٢) الجاحظ : المحاسن والأضداد ص٢٩٨.

(٣) راجع كتاب المعمرين من العرب ، حيث يصور مأساة الشيخوخة بأقلام أصحاب التجربة والكتاب كأنه نعى لحياة هؤلاء الناس والتعلق بالأمل المستمر توقا إلى الموت الذي لا يأتي.

ومن خلال تصوير الرب سبحانه لأطوار التغير الإنساني نستشف مدى المأساة:
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

- ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[2].

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾[3].

فمرحلة الشيخوخة المتأخرة – ببصمات الزمن الظاهرة والخفية – مأساة أي مأساة: «من يرد إلى أرذل العمر، فهو صفحة مفتوحة للتدبر ماتزال فبعد العلم، وبعد الرشد، وبعد الوعي، وبعد الاكتمال، إذ هو يرتد طفلاً، طفلاً في عواطفه وانفعالاته، طفلاً في حافظته فلا تمسك شيئا، وفي ذاكرته فلا تستحضر شيئا، طفلاً في أخذه الأحداث والتجارب فرادى لا يربط بينها رابط، ولا تؤدي في حسه ووعيه إلى نتيجة، لأنه ينسى أولها قبل أن يأتي على آخرها»[4].

وقد تنتهي هذه الحالة إلى شرود ذهني بالغ، وفقد ذاكرة تام، أو ذهول متصل، أما الحطام الباقي من الجسم، فكومة مهملة لا تكاد يلتفت إليها إلا من باب العطف، أو خوف الملامة.

---

(١) سورة غافر الآية ٦٧.

(٢) سورة النحل الآية ٧٠.

(٣) سورة الحج الآية ٥.

(٤) في ظلال القرآن جـ١٧ / ٥٨٢ (تفسير سورة الحج).

والشعراء لم تغب عنهم هذه الظاهرة المأساوية، فهي تجربة حية لا تخطئها عين فكيف بحس شاعر مرهف:

يقول زهير:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب   مته ومن تخطئ يعمر فيهرم [١]

ويقول قطرى بن الفجاءة:

وما للمرء خير في حياة   ذا ما عد من سقط المتاع [٢]

ويقول أبو العتاهية:

المرء يأمل أن يعيش وطول عمر قد يضره
تفنى بشاشته ويبقى بعد حلو العيش مره
وتخونه الأيام حتى لا يرى شيئاً يسره [٣]

وفي مجال الفلسفة يلحظ أن موقف سقراط الشجاع من الموت ربما يرجع إلى بلوغه السبعين من عمره حينما صدر عليه الحكم بالموت. وهو نفسه يفسر ذلك في محاورة اقريطون فيقول: «إن الإنسان إذا ما وصل إلى مثل سنى فإن عليه ألا يجزع من اقتراب الموت»[٤].

ويوضح أكزينفون موقف أستاذه فيقول: «إن الموت سيسمح له (أي لسقراط) بتجنب ضروب العجز والبؤس المرتبطة بالشيخوخة لقد وصل إلى نتيجة هي أن الموت بالنسبة له أمر مرغوب فيه أكثر من الحياة.ومن الخير أن نتذكر في هذا الصدد أن الخوف من الشيخوخة البائسة كان يقلق الكثير من الإغريق»[٥].

ويصف أحد الفلاسفة (وهو هولوباردى) أبعاد المأساة فيقول: « أما الشيخوخة،

(١) ديوان زهير ص٣٠، خبط عشواء: أي تخبط خبط العشواء وهي الناقة لا تبصر ما أمامها ليلا.
(٢) نفس هذه الفكرة رددها أكثر من شاعر.
(٣) ديوان أبي العتاهية ص٢٠٩ وتجدها عند دريد بن الصمة الجشمي (المعمرين من العرب ص٢١).
(٤) محاورة أقريطون: ص٨٤ (من محاورات أفلاطون).
(٥) جاك شورون: الموت في الفكر الغربي ص٥٠.

فهي الشر الكبير، لأنها تحرم الناس جميع المسرات، وتتركهم مع هذا يشتهونها ويقطعون الأنفس عليها حسرات، ولا يظفرون بغير المتاعب والأوجاع»[1].

ماذا يبقى بعد ذلك إلا انتظار الموت.

لا أحد يستطيع أن يمد يد العون فيها لا تبلغه طاقة. الجميع في حالة ترقب وانتظار متى يجئ الموت لكي يضع حدا لمأساة الشيخوخة، وعندما يتاح يكون أفضل الحلول الممنوحة من القدرة الإلهية، لتصان كرامة الإنسان الذي كرمه الله في بدء الخليقة على سائر مخلوقاته.

ب- أمراض الجسم والنفس:

لا يقصد بهذا العنوان الفرعي إلا إبراز حالة أخرى من حالات السأم والضيق بالعيش وممارسة الحياة.

فهذا إنسان، ألم به مرض خبيث أو آفة خطيرة، أطاحت بعض من أعضاء جسمه، أو حادث مؤسف أدى إلى بتر عضو أو آخر أو ما شاكل ذلك. ترى كم يعاني مثل هذا البائس من آلام نفسية وجسمية قد تستمر سنوات و سنوات لا سيما إذا تفاقمت به الحال حتى أصبح معدوداً من سقط المتاع: أليس هو إذن مصدر معاناة دائمة لا لنفسه فحسب، بل للجميع أيضا: آهة طويلة لا تنقطع، وأنّة حزينة يتردد صداها داخل داره، ودمعة حارة أثر دمعة تنسكب آناء الليل وأطراف النهار؟

ولا تنسى أن الآلام النفسية، وإن كانت تسير هي والآلام الجسمية تختص بعضو من أعضاء الجسم، فإن الآلام النفسية تعم الجسم والروح وتغطيها بغطاء كثيف شامل لا يدع فراغا أو متنفسا.

إن الموت في هذه الحالة هو المخلص الوحيد، والملاذ الذي نبحث عنه بكل إصرار

---

(١) العقاد: بين الكتب والناس ص٣٢٣، والمفكر هو لباردي، ثالث ثلاثة من قادة الفكر الذين اشتهروا بالنقمة والتشاؤم في الآداب الأوروبية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهو إيطالي جمع بين الفلسفة والشعر.

وعناد، ولولا مخافة الله لاشتراه كل ذي فطرة نقية وقلب سليم بأفدح الأثمان.

وقد كانت مرت بالسيدة مريم العذراء « أم المسيح » أزمة نفسية من تلك الأزمات حينما حملت به من غير أب معلوم حسب المشيئة الإلهية – فماذا كان موقفها؟ أو حالتها النفسية؟ إن قولها هو الذي يكشف عن أعماق نفسها: « قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً »[١]. فهذا التمني للموت ليس بالأمر المستغرب إذ ذاك، بل هو حل أمثل – لو أتيح أو أبيح – للمعاناة النفسية التي تعانيها إنسانة قديسة طاهرة، كريمة المحتد، لها قلب ملاك وعصمة نبي، وصفاء رسول.

ويبرز الشاعر العربي ميزة الموت في تحرير الجسم والنفس من ربقة المرض وتطهيرها من آلامها، وعتقها من المعاناة المستمرة، وتقريبها من الحياة الباقية:

جزا الله عنا الموت خيرا فإنه	أبر بنا من كل بر وأرأف
يعجل تخليص النفوس من الأذى	ويدني من الدار التي هي أشرف[٢]

ويقول فيلسوف المعرة:

– ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد.

إن الحياة المقترنة بالأفات العظيمة، والمحن الهائلة، والآلام الشديدة، مثل أن يسبى الرجل وأهله وولده، ويملكهم قوم أشرار، حتى يرى في أهله وولده مالا طاقة به، فهذا كله مكروه وليس أحد يختار العيش فيه ولا يؤثر الحياة معه »[٣]. لذلك يستحب الموت بميل الفطرة، ونظرة العقل لا بأمر الشرع، ويسترسل إليه استرسال المستروح.

أما الدين، فصدق الرسول ﷺ:

« لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه فإن كان لا بد فاعلاً، فليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وأمتني ما كانت الوفاة خيراً لي »[٤].

---

(١) سورة مريم الآية ٢٣.
(٢) الجاحظ : المحاسن والأضداد ص٢٩٧.
(٣) أبو حيان ومسكويه : الهوامل والشوامل ص٧٣.
(٤) رياض الصالحين ص٣٢.

٣- الاستشهاد في سبيل المبادئ والعقائد:

في كل مجتمع من المجتمعات البشرية، توجد مجموعة من الآراء والمعتقدات، والعادات والتقاليد وألوان من الثقافات المتعددة. وهذا ما يميز في الجانب العقلي كل مجتمع عن المجتمع الآخر، وعادة ما يتمسك بعاداته وثقافته كل التمسك ويدافع عنها بحرارة وصدق.

وتسود المجتمعات الإسلامية، على وجه أخص، مجموعة القيم الدينية، والمبادئ الأخلاقية المستمدة من القرآن الكريم والسنة، والتي تواجه بالثقافات المادية والإلحادية، وقد قام على نشر الثقافة الإسلامية، في صدرها الأول، ودافع عنها، ومات في سبيلها رجال أشداء، خلفهم رجال أشداء، وهي ما تزال في حاجة ماسة إلى من يخلفهم جميعا ليحمل بدوره العبء الذي طالما حملوه، إلى أن يضعه على أكتاف جيل آخر، وهكذا دواليك وهنا تبدو حكمة من حكم الموت كأجلى ما تكون. فصحابة الرسول ﷺ والتابعون لهم بإحسان، لم يكن لهم مناص من الاستشهاد في سبيل تلك القيم العالية.

وعلى مر التاريخ كان الكثيرون من الأفراد والقادة يدفعون حياتهم في سبيل الدفاع عن أفكارهم، ومعتقداتهم ثمناً بخساً لأثمن وأغلى ما يمكن اقتناؤه.

يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[١].

فهذا هو الاختبار الإلهي للبشر لإظهار من منهم سوف يجعل هذه المبادئ أغلى من روحه التي بين جنبيه، ليتسنى إرساء أسس المجتمع الصالح ورفع بنائه الذي لا يأتي من فراغ، وأولئك هم الرجال الذين سارعوا إلى الاستجابة، وورثوا الأجيال بعدهم تبعة أي تبعة. وفي غير بيئة الإسلام – قديما وحديثا – ما لا يبعد كثيرا عن هذا الاتجاه.

وإليك بعض الأمثلة: يقول امرؤ القيس لصاحبه (عمرو بن قميئة [٢]) الذي تبين

(١) سورة الملك الآية ٢.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٩٥ ، وأيضا الأغاني جـ١٨ / ١٤٤.

بعد ما كان يجهل أن الرحلة إلى قيصر الرومان، التماسا للعون منه والمدد: لا تبك ولا تحزن، لأن علينا واجبا مقدسا هو استرداد ملك الآباء، والانتقام من أولئك الذين ثلو عروشهم، وإلا – يا صاحبي – فالموت أهون من الضيم.

جزا الله عنا الموت خيرا فإنه ... أبر بنا من كل بر وأرأف
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له: لا تبك عينك إنما ... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا[1]

والفيلسوف اليوناني سقراط. الذي افتدى بحياته مبادئه وأفكاره التي اعتنقها ورفض الوقوع في شرك الإغراء بالهرب من السجن الذي دبره له تلاميذه، مؤثرا امتثال قوانين البلاد، واحترام أوامر المحكمة، حتى النهاية الفاجعة احتسائه بيده كأس سم «الشوكران» السام.

قد يمكن أن تسمى هذه شجاعة أدبية، ولكنها خطأ لا شك فيه، لأن من أكبر الجنايات التي لا تغتفر على الحياة العقلية بعامة، أن يضحى بعقلية ضخمة – كعقلية سقراط – على مذبح الجهل والتجني، وثم طريق للنجاة مهما تكن ملتوية، ومدبرة في الظلام فإن هذا الظلام إذن لهو أجمل من نور الصباح الذي يبهر الأبصار.

ونعماً ما فعل أرسطو – عقل الأكاديمية – إذ قال: لن أسمح للأثينيين أن يخطئوا في حق الفلسفة مرتين[2]. ثم هرب من أثينا لئلا يلقى مصير سقراط.

وهذا بعينه هو ما فعله أفذاذ المصلحين وقادة الفكر والرأي في العالم كله بعد ذلك، وفي العالم الإسلامي أيضا: لا يدفع المصلح حياته إلا حيث لا يجد مفرا، لكنه يضحي بها راضيا، وهذا ما نجده عند من أسلموا النفس اضطرارا على أيدي الطواغيت، ومن هؤلاء الرجال الأخيار:

الجعد بن درهم (ت ١١٦ هـ) الحلاج (ت ٣٠٩هـ)، وشهاب الدين

(١) ترجمته في الأغاني جـ١٨ / ١٣٩-١٤٤ ، وبروكلمان : تاريخ الأدب العربي جـ١ / ١١٧.
(٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص١١٣.

السهروردي(ت٥٨٧ هـ) وحسن البنا(ت ١٩٤٩ م) وسيد قطب (ت ١٩٦٦م).

٥- إذلال المتكبرين والطغاة:

نفوس البشر مختلفة، وأفعالهم في الحياة متفاوتة، فمن ملتزم الصراط المستقيم، يعيش معتزا بالمبادئ الخلقية متعلقا بأهداب الدين، يعرف ماله، وما عليه، لا يحيف ولا يجور، ومن منحرف عن الطريق السوي، يأتي المنكرات ويذل الكبير، ويهين الصغير، حتى تبلغ به الجرأة أن ينصب نفسه الفانية إلهاً في الأرض من دون الله، كأنما ينطق بلسان فرعون:

«أنا ربكم الأعلى».

في هذا الموقف، كم يتمنى ملايين البشر الموت الزؤام لهذا الظالم؟ وكم يدعوا المظلومون عليه وتتصاعد أناتهم في جوف الليل، مع نشيج بكائهم تطلب من الخالق الجبار الانتقام والتنكيل بهؤلاء الأقزام، بعد أن نسوا حقيقة أنفسهم، وإفساح المولى لهم، إنه الإمهال لا الإهمال: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[(١)].

إذلالاً لهؤلاء المتجبرين الطغاة يأتي الموت حتف الأنف، فيمرغ في التراب أنوفهم، ويدس تحت الأقدام أجسادهم، كأي بائس مغلوب على أمره لا حول له ولا طول. هذا قبر مهما ازدان، وذاك قبر مهما استكان، في الموت يتساوى الجميع، الملك والرعية، والأمير والحقير، والغني والفقير. وصدق أبو العلاء المعري وهو يشير إلى التراب الذي عاد إلى أصله:

خفف الوطء ما أظن أديم — الأرض من هذه الأجساد
رب لحد قد صار لحدا مرارا — ضاحك من تزاحم الأضداد

ثم يقول آخر:

لو عرف الإنسان مقداره — لم يفخر المولى على عبده
والواحد المفرد في حتفه — كالحاشد المكثر من حشده

وصدق أبو العتاهية فيما هو دون ذلك:

---

(١) سورة الحجر الآية ٣.

ولقد مررت على القبور فما ميزت بين العبد والمولى[١]

ألا نتبين هنا حكمة بالغة من حكم الموت: «سبحان من كتب الموت على عباده فأذلهم به هدما، وكسراً، ثم بث بذور النطف في أراضي الأرحام وأنشأ منها خلقا وجعله لكسر الموت جبراً، وتنبيهاً على أن بحار المقادير فياضة على العالمين نفعاً وضراً»[٢].

وهكذا فالموت إذا وقع خبط عشواء، يصيب ويخطئ بالصدفة العمياء. إنه ضرورة ليس عنها من غنى، لاستمرار الحياة، ولإنقاذ الإنسان من السأم والملل.

ولوضع حد للأمراض الخبيثة التي تفتك بالأبدان، وتحطم النفوس، ولتتويج المجاهدين الأبطال الذين سارعوا إلى جنة عرضها السماوات والأرض بتيجان الشهداء الأبرار، ولإذلال الآلهة الصغار الذين أفسدوا كل شيء.

هذا قل من كثر، وجهد المقل، بل قطرة من بحر، لكشف الحكم الإلهية الكامنة وراء هذا الحدث المهول: الموت.

* * *

(١) ديوان أبي العتاهية ص٢٢.
(٢) الإحياء جـ١ / ٢١.

الفصل السادس

كيف ننتصر على الموت؟

الفصل السادس

كيف ننتصر على الموت؟



تمهيد:

يجب- بادئ ذي بدء- أن نوضح، ماذا نعنى بالانتصار على الموت؟ هل يكفي لذلك أن نعيد طرح السؤال بصيغة أخرى: هل من الممكن الانتصارعلى الموت؟

وبالطبع فالإجابة بدهية؛ أعنى أن الموت ماض في طريقة، يحصد الرؤوس والنفوس، ولا أحد يستطيع أن يرده أو يصده هنيهة واحدة، بله أن ينتصر عليه فالمواجهة بين الموت والإنسان، معلومة النتيجة سلفا. وهي الهزيمة الساحقة للإنسان.

لقد كان حلم البشرية منذ فجر التاريخ البحث عن حيلة سحرية تنزل الهزيمة بالموت، وتنقذ ضحاياه من بين براثنه، فلما عيت بالأمر أشركت معها الآلهة وصنعت الأساطير والملاحم لعل قدرات الآلهة، تعوض النقص عند بنى البشر، فتهتك سر الموت، وتحصل لهم على إكسير الخلود، وفي إحدى الأساطير، أن الموت أخذ يفتك يوماً بالبشر فتكاً ذريعاً، فتألم أحد الآلهة لذلك، ونزل من عليائه ليعرف السر الرهيب، فوجد أن المياه مسمومة، واستطاع ان يستخلص منها السم، ثم وضعه في كأس،وتجرعه راضيا فداء للبشر مات هو ليبقوا هم بعده، ولكن الواقع أنه مات عبثا،وظلوا هم يموتون زرافات ووحدانا.

وفي أسطورة «جلجامش» محاولة أخرى ليست أسعد حظا من هذه تقول الأسطورة: إن ملكا نصف إله اسمه جلجامش، تألف إنسانا وحشيا اسمه انكيدو (بعض أعضائه أعضاء حيوان أعجم)، فلما مات «أنكيدو» حزن عليه جلجامش حزناً شديداً، وأخذ يبحث في السماء عن نبات سحري يدفع به الموت عن البشر ويمنحهم الخلود.

فلما أصبح قاب قوسين من ذلك النبات، دفع عنه، فسقط عائدا إلى الأرض خائب

الرجاء كسير الخاط[١].

الانتصار على الموت إذن، خرافة ما بعدها خرافة ولا صلة لها بالواقع ولا استقامة لها في حس أو عقل. إنما هي تهويمات للعقل البشري القاصر تفتعل معارك وهمية هي إلى تسلية النفس المحزونة وجلب العزاء إليها أدنى منها إلى أي شيء آخر، بله الانتصار على عدو لا قبل لأحد به.

لا مفر إذن من أن نعنى بالانتصار على الموت، هو كيف نتقبل الموت بقبول حسن؟ بنفس صافية راضية مطمئنة بل وأحيانا نسعى إليه حين يكون ذلك هو معيار البطولة أو الرجولة، والشهادة التي لا بد منها في سبيل الحق بمثل هذا المنطق نكون قد انتصرنا على هذا الفاتك الذي لا يرحم أرضنا، إذن فسبيل الانتصار على الموت يتجلى في مجالات شتى نلخصها في:

أولاً: تغيير أفكارنا تجاه الحياة.

ثانياً: تغيير أفكارنا تجاه الموت.

ثالثا: وسائل مواجهة الموت.

أولا: تغيير أفكارنا تجاه الحياة:

إذا تغيرت أفكارنا تجاه الحياة تغيرت تلقائيا تجاه الموت وأول نقطه في هذا الموضوع، هو تكوين تصور حقيقي لطبيعة الحياة في هذه الدنيا.

١- هذه الحياة في التصور الإسلامي:

خلع القرآن الكريم على هذا الحياة صفات شتى أهمها – من حيث الزمان والمكان –

---

(١) وتقول الملحمة في رواية أخرى، أن جلجامش حصل على النبات، وكان فرحاً به ولكنه نزل عند بئر ليغتسل فشمت الأفعى شذا النبات السحري، فتسللت إليه واختطفته. وهكذا فوتت على البشرية جمعاء فرصة أخيرة للحصول على الخلود، وهذا نص من الملحمة:
إلى أين تسعى يا جلجامش، إن الحياة التي تبغي لن تجد، حينما خلقت الآلهة العظام البشر، قدرت الموت على البشرية، واستأثرت هي بالحياة(فاضل على: ملحمة جلجامش ص٤٦ من مجلة عالم الفكر م/ ١٦ يونيو ١٩٨٥ الكويت).

إنها فترة عابرة في عمر الوجود، ورحلة قصيرة إلى دار القرار وقنطرة للعبور إلى المنطلق الثابت اللامحدود.

ثم هي فوق ذلك لهو ولعب وزينة وتفاخر؛ أعراض سيالة مثل السحب التي تبدو ثم تتبدد، والأمانة التي ترد إلى صاحبها، أو كما شبهها القرآن الكريم مثلها مثل الزرع الذي ينمو ويترعرع، ويزهو، ثم يذبل، ويصفر، ويصبح كومة من الهشيم تذروها الرياح.

وإليك مثالاً أو مثالين من الصور الدقيقة التي يقدمها القرآن الكريم للحياة الدنيا:

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[1]﴾.

﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[2]

أي إذا كان هذا هو شأن الحياة الدنيا، فإن وراءها حياة أخرى مختلفة جداً.

فالحياة- مأخوذة بهذا العنوان العام- هى في التصور الإسلامي ليست هذه الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد، وليست هي هذه الفترة المحدودة التي تمثل عمر الأمة من الناس، كما أنها ليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا.

إن الحياة في التصور الإسلامي،تمتد طولا في الزمان،وتمتد عرضا في الآفاق، وتمتد عمقا في العوالم وتمتد تنوعا في الحقيقة عن تلك الفترة التي يراها ويظنها ويتذوقها من يغفلون الحياة الآخرة من حسابهم ولا يؤمنون بها.

إن الحياة في التصور الإسلامي، تمتد في الزمان، فتشمل هذه الفترة المشهودة فترة الحياة الدنيا – وفترة الحياة الأخرى التي لا يعلم مداها إلا الله والتي تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس إليها ساعة من نهار!!

وتمتد في المكان، فتضيف إلى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر، داراً أخرى، جنة عرضها كعرض السماوات والأرض ودارا تسع الكثرة من جميع الأجيال التي عمرت وجه الأرض ملايين الملايين من السنين.

---

(١) سورة الحجرات الآية ٣.

(٢) سورة النساء الآية ٧٧.

تمتد في العوالم، فتشمل هذا الوجود المشهود إلى وجود مغيب لا يعلم حقيقته كلها إلا الله، ولا نعلم نحن عنه إلا ما أخبرنا به الله. وجود يبدأ من لحظة الموت، وينتهي في الدار الآخرة، وعالم الموت وعالم الآخرة كلاهما من غيب الله، وكلاهما يمتد فيه الوجود الإنساني في صورة لا يعلمها إلا الله.

وتمتد في حقيقتها، فتشمل هذا المستوى المعهود في الحياة الدنيا إلى تلك المستويات الجديدة في الحياة الأخرى في الجنة وفي النار سواء[١].

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

وقالوا في شرح الحديث: «لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطنا ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها ولا بالاعتناء بها ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله»[٢].

بهذا الفهم الصحيح لجوانب الحياة، يستطيع الإنسان أن يؤدي رسالته التي نيطت به، ويعتبر نفسه ضيفا في مأدبة يأخذ منها باعتدال، أو ممثلا يقوم بالدور الذي يعهد إليه، وليكن هذا الدور طويلاً أو قصيراً، دور ملك أو شحاذ، فليقم به راضيا لأن ذلك يتعلق بالإرادة الإلهية، ولا يتعلق بالإرادة الفردية.[٣]

من منطلق هذا التصور الحق، لا يأسف الإنسان حينما يأتيه الموت أو يأتي أحد أحبائه لأنه على هذا وطن نفسه، وعاش ينتظر هذه اللحظة، مؤمنا إيمانا عميقا بمرحلية هذه الحياة، وصيرورتها التي لا تتوقف، وأنا فيها غرباء، وعلى دربها مسافرون

٢- ازدواجية الحياة:

هذه الحياة ليست خيرا مطلقا، وليست شرا مطلقا،ليست سعادة محضة، وليست

---

(١) في ظلال القرآن جـ ٧ / ١٨٠ –١٨١.
(٢) رياض الصالحين ص ٢١٦ –٢١٧.
(٣) محمد يوسف موسى: تاريخ الأخلاق ص ١٣١.

قصة من الآلام متوالية الفصول، بل هي مزيج من هذا وذاك. إن قوانين الحياة التي تنظم حركتها تكشف عن هذه الازدواجية ليس هذا فحسب فيما ذكرنا بل حتى: الليل والنهار، والحرارة والبرودة، والسيولة واليبوسة، والمد والجزر والحركة والسكون، والصحة والمرض والولادة والموت.

هذا الفهم العميق لثنائية الحياة، يجعل الإنسان مترقبا لكل الأحداث لا يفاجأ بشيء منها: دياجير الظلام وانبثاق الفجر، ظلمة الليل وتباشير الصباح، آلام الوضع وصراع الموت، الأفراح العارمة والدموع الغزيرة، الثمرة الناضجة والشجرة الجافة.

والله سبحانه يذكر بهذا في بيانه المعجز: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

يقول أبو البقاء الرندى مصورا هذه الازدواجية أصدق تصوير وأحسنه:

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان
فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرات وأحزان [٢]

ويقول ضابي بن الحارث البرجمي:

ولا خير فيمن لا يوطن نفسه ... على نائبات الدهر حين تنوب

وفي مجال الفلسفة، يعرض شوبنهاور «schopenhauer1860» جانبا واحدا للحياة، هو جانبها المؤلم والمظلم، مغمضا عينيه عن جانب اللذة والنور.

وتعالوا بنا نقرأ، ماذا يقول عن جانب الشر في الحياة: «الحياة شر لأن السعادة هي في

(١) سورة يونس الآية ٢٤.
(٢) المقري: نفح الطيب جـ٤ / ٤٨٧.

الحقيقة مجرد موقف سلبي، والحياة شر لأنها مليئة بالضجر الذي يطوق حياتنا بعد أن نشبع حاجاتنا ... وإذا كان علينا أن نستحضر أمام بصر الإنسان ذينك الشقاء والبؤس الرهيبين اللذين تتعرض لهما حياته باستمرار، لاستبد به الفزع، ولو أنه كان علينا أن نقود المتفائل الراسخ في تفاؤله إلى المستشفيات، وملاجئ العجزة، وغرف العمليات الجراحية وأدخلناه السجون، وغرف التعذيب، وأوكار العبيد، ومررنا به فوق ميادين القتال وساحات الإعدام... إن الحياة ليست إلا صفقة خاسرة لا تغطي تكاليفها"[١].

هكذا ينتهي هذا الفيلسوف المتشائم إلى تجاهل كل المعاني الطيبة في الحياة: معاني الخير والحب والفرح والسعادة، ناظرا إليها بمنظار أسود شديد السواد.

ومن جانبنا لا نغفل عن أهمية ازدواجية الحياة الماثلة أمام أعيننا جميعا لأنها توطن النفس البشرية على تقبل المرض من حيث كانت ترجو الصحة، والضيق من حيث كانت تأمل الفرح، والفشل بعد أن كان النجاح قاب قوسين، وعلى هذه الوتيرة يكون الموت هو الوجه المقابل للحياة، يتقبل كل منهما بديلا عن الآخر تقبل المألوف الذي لا بدع فيه ولا شذوذ.

٣- حياة الكرامة:

الحياة هبة من الله، ومنحة منه للإنسان، على أن يعيشها بشقيها: المادي والروحي موازنا بين متطلبات كل من الجسد والروح، مصغياً لنداء السماء دون أن يعير الأرض أذنا صماء.

هذا الرسول ﷺ يرفض الشذوذ على الفطرة الذي ذهب إليه بعض المتكلفين أنفسهم إذا قال أحدهم: أما أنا فأصوم النهار لا أفطر أبدا وقال الآخر: أما أنا فأقوم الليل، لا أنام أبدا، وقال الثالث: وأما أنا فأعتزل النساء ولا أتزوج أبدا.

فجاء رسول الله ﷺ يعقب بلهجة الغاضب، ليس من أجل نفسه، بل من أجل

---

(١) العالم إرادة وتخيل، المجلد الأول ص٤١٣ - ٤١٩ والمجلد الثالث ص ٣٨٣ (نقلاً عن كتاب شوبنهاور للدكتور أحمد معوض ص ١١٩- ١٢١ و أيضا الدكتور بدوي ص ٢٣٧).

الانحراف بدعوة الحق عن نهجها السليم: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله أني لأخشاكم الله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»[١].

وما الكلمة المأثورة عن وارث إلهام أبيه ابن عمر: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لأخرتك كأنك تموت غداً. إلا فهم صحيح لنص القرآن الكريم: ﴿اللهُ الدَّارَ الأَخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[٢].

وليس يخفى أن من أول ما تتشوف إليه الروح النقية، الحفاظ على حرمتها وصيانة كرامتها.

وهذا شيء مركوز في الفطر، لا يتوقف على فلسفة متفلسف، ولا وحى السماء وأن أكداه جميعا حتى لقد قال الشاعر القديم:

لا تسقنى ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

فعلينا إذن أن نحيا هذه الحياة في إباء وشمم، لا كما يريدها لنا طواغيت الأرض عبودية وهوانا « لا ملامة على الإطلاق في حب الحياة كما نريدها، وبالشروط التي نرضاها، فتلك هي القوة أمام الحياة وأمام الموت على السواء[٣] ولكن الملامة كل الملامة أن نقبل ونحرص على أي حياة، كاليهود.فيما حكى عنهم الذكر الحكيم: ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ...[٤]﴾ وشتان بين حياة وحياة! وشتان بين اهتمام واهتمام! مع اتحاد النتيجة بالقياس إلى العمر والأجل، والذي يعيش لهذه الأرض وحدها، ويريد ثواب الدنيا وحدها، إنما يحيا حياة الديدان والدواب والأنعام! ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب. والذي يتطلع إلى الأفق الأخر إنما يحيا حياة الإنسان الذي كرمه الله واستخلفه، وأفرده بهذا المكان، ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب »[٥]

---

(١) رياض الصالحين ص ٧٨

(٢) سورة القصص الآية ٧٧

(٣) العقاد: بين الكتب والناس ص٤٤٧

(٤) سورة البقر الآية ٩٦.

(٥) في ظلال القرآن جـ٤ / ٩٦-٩٧ (تفسير سورة آل عمران).

والكرامة الإنسانية، لها في هذه الحياة دعامة أي دعامة، لمن يريد أن يعي ويتذكر: العمر واحد لا تعدد فيه ولا نقص ولا زيادة، سجل منذ الأزل، فهو قدر مكتوب:

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾[١].

رسوخ هذه العقيدة في الضمير الإنساني يملأه بشحنة روحية هائلة وطاقة لا قبل لأحد بها إذ ينطلق لا يلوي على شيء لا خوف ولا هلع، كله الثبات على المبدأ والشجاعة والإقدام،ليعيش الحياة بكل أبعادها هانئا بثمارها متمتعا بخيراتها، في ظلال شريعة الرب، أو قوانين السماء.

تعالوا نتمل معاً بتلك الصور الجميلة لحياة الكرامة والعزة، لكن من منظور ديني فلولا هذا المنظور، لما كانت ثم كرامة، ولما كانت ثم عزة: « في الخارج تزقزق العصافير على فروع الأشجار، ويغني الديك للشمس أنشودته ويفيض النور على الحقول، وتتفتح البراعم، وترفع سوق النبات رؤوسها في ثقة إلى أعلى، ويتصاعد العصير في الشجر هنا أطفال: ماذا يجعلهم بهذا المرح يجرون في جنون فوق الحشائش الندية، ضاحكين، صائحين، متطاردين، أي نشاط، وأي روح، وأى سعادة. ماذا يعنيهم من الموت؟ لعلهم يرفعون الحياة إلى أعلى، خطوة صغيرة قبل أن يصيبهم الموت.

وهناك في الحدائق، يمر المحبون في غسق الليل وهم يحسبون أن أحد لا يراهم إن حديثهم الخافت، يختلط بهمهمة الحشرات وهي تنادي ذكورها إن الظمأ القديم ينطق من خلال الشغف والعيون الناعسة، وينتقل جنون شريف خلال الأيدي المتعانقة والشفاة المتلامسة، إنها الحياة تنتصر[٢]..

من هذا المنطلق الواضح لخوض غمار الحياة بقلب جرئ وجنان ثابت، مهما تقلبت أحوالها نقف مشدوهين أمام رأي القديس أوغسطين (augustjne430) حين يقول:

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٤.

(٢) ديورانت : مباهج الفلسفة جـ٢ / ٣٠٧ .

تطلبون الحياة السعيدة في ديار الموت فلا تجدونها، وكيف تكون الحياة سعيدة حيث لا حياة[١].

هذه مقولة لا شك، خاطئة من منظور التصور الإسلامي للحياة، لأنها ببساطة شديدة، ضد الإرادة الإلهية التي أوجدتنا على ظهر هذه الأرض وهيأت لنا الأسباب، وخلقت الكثير من الموجودات وسخرتها من أجل هذا الإنسان.

فالحياة في ذاتها نعمة، وإن شابتها شوائب آخر،لأنها عطية إلهية هبة من لدن حكيم عليم، فلماذا نتنكر لهذه النعمة، ونرفض الهدية. ألم يقل المولى سبحانه ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٢] لأن عطاياه ومننه لا تعد ولا تحصى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٣].

فلماذا ننتقص من الخلق الإلهي بقولنا إن السعادة لا توجد في الحياة؟ إن الحياة الدنيا آتية من مصدر إلهي وهو سبحانه يعلم أنها ناقصة لأنه خلقها وقدرها على هذا النحو الناقص- من مفهوم بشرى- إذ إن الخلق الإلهي كمال من جميع الوجوه ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾[٤].

إن الله هو الذي جعلها كما أرادها «ديارا للموت» وإرادته وفعله خير كلاهما خير وحتى القديس أوغسطين نفسه في مناسبة أخرى يقول هذا: لأن الله خير فنحن موجودون [٥].

ربما كان عذر أوغسطين أنه أراد أن يكبح جماح الإنسان، وإقباله النهم على الحياة، وأن يذكره دائما بأن هناك حياة أخرى أفضل وأدوم من تلك الحياة.

٤- إكسير الأمل:

الأمل، هو أهم زاد دنيوي يتزوده الإنسان في مشواره الطويل أو القصير في هذه

---

(١) الاعترافات ص ٦٩.
(٢) سورة إبراهيم الآية ٧
(٣) سورة النحل الآية ١٨
(٤) سورة الملك الآية ٣
(٥) أتين جيلسون : تاريخ الفلسفة المسيحية ص ١٦٤.

الحياة. الأمل في غد سعيد، الأمل في عمر مديد، إياك واليأس من التحول إلى الأحسن:

من مرض إلى صحة من فقر إلى يسر، من فشل إلى نجاح، من هزيمة إلى نصر الأمل يحدو الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته هو الذي يمسح الدموع ويجفف المآقى، ويلون الحياة بلون جميل ربما يجعلها أنشودة حلوة تشنف الآذان يترنم بها صباح مساء.

لولا إكسير الأمل لأصبحت الحياة كئيبة، وخوت من معناها، ولتملك الذعر الإنسان فهو لا يدري كيف يصنع كأنه الفأر تمتد إليه مخالب قط مفترس فهو يجري في كل مكان بلا هدف ولا غاية، لا شيء إلا الانهيار و العدم.

لولا الأمل لتوقفت حركة الحياة، واختل ميزانها. إنه جزء من العمليات الوجدانية والنفسية والعقلية المصاحبة للطبيعة البشرية إن لم تصحبه إلى الرمق الأخير.

لو كانت الحوداث اليومية التي نراها رأي العين والتي تودي بحياة الآخرين تسلب الإنسان أمله، لما ركب أحد سيارة أو أقلع جواً،أو سافر بحراً، بل لما سار أحد في الطريق خوفاً من الخوف نفسه.

«أن الأمل هو الذي يخيل إلى الإنسان أنه معفى من حكم القضاء وأن الحوادث تصح معه ما أخطأت به مع الآخرين»[1].

وهكذا يتغلب الإنسان على الخوف كله، حتى خوف الموت، بقوة الأمل [2] فيعيش هادئ البال مستريح الخاطر، مفكرا في غده وما يتمخض عنه راجياً منه الخير الكثير والفوز العظيم، مبعدا عنه لباس الخمول والقنوط.

---

(١) العقاد : بين الكتب والناس ص ١٩٦ – ١٩٧.

(٢) يرى ابن الجوزي أن من تلبيسات إبليس على الإنسان طول الأمل في الحياة وهذا يدفعه إلى ارتكاب المعاصي وتسويف التوبة (تلبيس إبليس ٤٠٤ – ٤٠٥). والحقيقة أنه ليس بالضرورة أن يكون هذا الأمل المشار إليه من تلبيس إبليس لأنه – كما ذكرنا – جزء من التكوين الأساسي للشخصية الإنسانية. وربما يقترب من العوامل الفطرية أكثر من المكتسبة. إذ إنه لولا الأمل في غد مشرق لتوقفت حركة الحياة.ولولا الامل في رحمة الله ، لأقدمت البشرية على الانتحار قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله أنه يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم.الزمر٥٣)

ثانيا: تغيير أفكارنا تجاه الموت:

ليس يكفي أن تتغير أفكارنا تجاه الحياة، حتى تتغير تماما تجاه الموت.

إن تلك الأفكار الخاطئة تجاه الموت التي ترسبت في العقل الباطن منذ الطفولة الغضة، وسذاجتها المفرطة، والتي تؤثر في سلوك الإنسان، وتوجهه دائما وجهة خاصة، كأنما هذا الموت وحش خرافي من وحوش الأساطير، يظهر في الأفق فاغراً فكيه ليطبقهما بلا أدنى شفقة أو رحمة على من يشاء، بلا معنى واضح ولا هدف معقول.

تلك الأفكار يجب أيضا أن تتبدل، ليتم الغرض المنشود، الانتصار على الموت وفي سبيل هذا لا أقل من التركيز على نقطتين غاية في الأهمية.

١ - الموت طور من أطوار النشأة الإنسانية.

٢- الموت ليس شراً كله.

١- الموت طور من أطوار النشأة الإنسانية:

يمر الوجود الإنساني بثلاثة أطوار:

الوجود في هذه الحياة الأولى، والوجود البرزخي، والوجود في حياة أخرى بعد البرزخ.

الطور الأول: ويمتد خلال عمر هذه الأرض منذ عاش الإنسان عليها إلى أن ينقرض الجنس البشري.

الطور الثاني: أعنى الطور البرزخي، ويفهم معناه إذا فهم معنى البرزخ في هذا السياق: والبرزخ في اللغة بعامة: هو الشيء الذي يحول بين شيئين ويرادا به هنا ما بين الدنيا والآخرة: أي الزمان الواقع بين الموت والنشور [١]

أو بعبارة أخرى، هو الفترة الزمنية التي يمكثها الجسم الإنساني في القبر والنفس في عالمها المتجرد، حتى يوم البعث.

---

(١) الجرجاني : التعريفات ص ٣٨ كشاف اصطلاحات :الفنون جـ١/ ١٦٣. وأيضا دائرة المعاوف الإسلامية مادة برزخ ص ٤٦ – ٤٧.

أما الطور الثالث: وهو ما بعد البرزخ فهو يبدأ منذ قيام الناس من قبورهم لرب العالمين ليحاسبهم على أعمالهم، فإما إلى جنة، و إما إلى نار ثم خلود لا موت معه إذا كان ذلك كذلك، فأين يقع طور الموت؟

الموت هنا يتوج الطور الأول الخاص بالطبيعة البشرية الفانية، فهو وسيلة هامة أو أداة فعالة تساعد البشر في الخلاص إلى طور آخر، هو الجسر الموصل بين الطورين الأولين الذي علينا أن نجتازه أو هو المركبة الصاروخية التي تحملنا من عالمنا هذا إلى عالم البرزخ.

هذا الشيء الميتافيزيقي(metaphysique) الذي يلمس الإنسان لمسه واحدة سحرية، فينقله من حالة الديناميكية المرئية إلى حالة أكثر ديناميكية، وإن تراءت للنظرة الحسية أبعد غورا في الاستاتيكية.

من هذا المفهوم، نرى أن الحياة ممتدة في الزمان والمكان والعمق على تفاوت أي تفاوت. فالحياة لا تنقطع ولا تتوقف، ولكن الوجود الإنساني يتحول من مرحلة إلى أخرى، لكل منها خصائصها وسماتها.

والقرآن الكريم إذ ينوه بشأن الشهداء الأبرار في قوله الحكيم

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[١] إنما يريد إن يلفت أنظارنا إلى أن الحياة البرزخية نفسها ذات تفاوت، وليست على وتيرة واحدة.

إن الموت ليس خاتمة المطاف، بل ليس حاجزاً بين ما قبله وما بعده على الإطلاق إن أردنا استمرارية الحياة في الجملة. هذا النمط من التصور لذو آثار ضخمة في مشاعر المؤمنين، ومعالجتهم لهذه الحياة واستقبالهم للموت بعدها. الآية الكريمة نص في النهى عن حسبان أن الذين قتلوا في سبيل الله وفارقوا الحياة وبعدوا عن أعين الناس أموات ونص كذلك في إثبات أنهم أحياء عند ربهم ثم يلي هذا النهى وهذا الإثبات، وصف ما لهم من خصائص الحياة ومع إننا نحن في هذه الفانية لا نعرف نوع الحياة التي يحياها الشهداء فإن هذا النص الصادق كفيل وحده أن يعلمنا إن الأمور في حقيقتها ليست كما

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٦.

هي في ظواهرها التي ندركها، وإننا حين ننشئ مفاهيمنا للحقائق المطلقة بالاستناد إلى الظواهر التي ندركها، لا تنتهي إلى إدراك حقيقي لها[(١)].

يقول ماركوس أورليوس (ت ١٨٠م) لا تلعن الموت بل تقبله قبولاً حسناً، ولتعده أمراً تتطلبه الطبيعة، فتحلل وجودنا عملية طبيعية شأنها شان الشباب والشيخوخة والحكيم لا يخاف الموت بل ينتظره ويعده عملية كسائر عمليات الطبيعة. [(٢)]

ويحكى أن عمر بن عبد العزيز(ت١٠١ هـ) كان يقول دائما: أيها الناس إنما خلقتم للأبد، ولكنكم تنقلون من دار إلى دار[(٣)].

وإخوان الصفاء ينظرون إلى الموت النظرة السابقة نفسها، وأنه انعتاق كبير للروح من سجنها المادي، وتحرر لها من الجسد، وولادة جديدة لها، ويضربون لذلك الكثير من الأمثلة، لكي يقربوا إلى أذهاننا هذه الصورة الحية: فكما أن الجنين يعيش زمنا في الرحم حتى تكتمل له أسباب البقاء ويحصل على صورته الحقيقية، ثم تأتي الولادة كانعتاق له من السجن المظلم إلى الحياة الفسيحة، ومن الضيق إلى الفرج.

أي أن الولادة تكون له بركة وسعادة، ثم يعيش الإنسان في هذه الحياة فيسعد بمباهجها، ويتمتع بخيراتها. وعندما ينتهي دوره في الحياة ويرتفع صوت النفير معلناً موعد الرحيل يأسف الإنسان على مغادرة هذا العالم، كما أسف سابقاً على مغادرة الرحم المظلم فليعلم أن النفس ما دامت في دار الدنيا فإن المراد منها أن تكتسب بأفعالها الحسنة، وأعمالها الصالحة، صورة تنتفع بها إذا فارقت هذا العالم الفاني والمحل الجسماني. [(٤)]

فعلى الإنسان أن يقيس هذه بتلك، ويتذكر صراخه السابق لكونه ترك المحل الأول، بعد أن شاهد نعمة الحياة وغدا عندما ينفتح على عالم الملكوت يتحسر مرات على العمر الذي مضى في هذه الأرض.

---

(١) في ظلال القرآن الكريم جـ٤ / ١٤٥ -١٤٦ ، تفسيرات آل عمران ٩ وأيضا جـ١٨ / ١٨ (سورة المؤمنين).

(٢) نقلاً عن الدكتورة أميرة حلمي مطر : الفلسفة عند اليونان ص ٤٠٨.

(٣) المبرد : الكامل جـ١ / ٢١٠.

(٤) رسالة جامعة الجامعة ص ٦٥.

ألم يتمن الشهداء بعد أن نعموا بخيرات الجنان أن يعودا إلى الأرض لكي يقتلوا مرات ومرات في سبيل الله؟ فهكذا كل من أسلف الخير وقدم المعروف ود لو كان استزاد.

وأديب الفلاسفة، في نظرته العميقة المتأملة للموت، يصل إلى نفس النتيجة السابقة، إذ يقول: «إذا كانت حياة ما منقطعة لا محالة،ثم كان ذلك يفضي إلى حياة أخري أبدية، ووجود سرمدي، صار هذا الموت غير مكروه إلا بقدر ما يكره من الدواء المر إذا أدى إلى الصحة».

فالإنسان المستبصر الذي يرى أن أخراه أفضل من دنياه، وآجله خير له من عاجله، يسترسل إلى الموت استرساله إلى الدواء الكريه، والعلاج المؤلم ليفضي به إلى خير دائم[1].

الموت إذن مرحلة من مراحل النشأة الإنسانية، ينتقل الإنسان بواسطته- من وجهة النظر البشرية- من العالم المرئي إلى العالم اللامرئي، من عالم المحسوسات إلى عالم الروحانيات.

والعكس صحيح أيضا إذا غضضنا النظر عن هذا الرداء السميك الذي تخلصت منه الروح: أي أن الإنسان ينتقل من عالم الخفاء إلى عالم الظهور من عالم الجسد والتغير إلى عالم الروح والثبات.

إن ما نسميه اختفاء الذاهب في رحلة الموت عن أبصارنا، هو ظهور شديد له في الحقيقة، لكن أبصارنا لا تستطيع أن تستكشف ما وراء الستار.

إن الموت بالمقاييس الصحيحة هو ولادة جديدة وخلاص إلهي للإنسان الذي عرف حقوق الله عليه ينتقل به إلى عالم النور والمحبة عالم الصفاء والخير عالم الفيض العميم، والملكوت الأعلى.

٢- الموت ليس شرا كله:

أشياء كثيرة (الأفعال والأفكار والموضوعات) ليست في ذاتها كريهة كل تلك الكراهية، ولكن تصوراتنا الخاطئة، هي التي تلونها بجميع الألوان السوداء.

---

(١) الهوامل والشوامل ص ٧٤.

ومن هذا القبيل الموت؛ إن الموت ليس في ذاته ذلك الشيء الذي تنخلع له القلوب كأنها هو أخوف من الخوف نفسه، لا أقول: بدليل إن كثيراً من الناس يقدمون عليه مختارين، فربها كان ذلك لأنه من وجهة نظرهم أهون الشرين، ولكن أقول فى ضوء ما أسلفنا، وفى ضوء ما سيجيء.

علي الرغم من كراهيتنا الشديدة للموت، فلاشك أنه مما يصدق عليه قول الله سبحانه: ﴿عَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

وأول ما في الموت من الخير؛ انه ينقذنا من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا فالنفس البشرية أمارة بالسوء حتى لو كنا صالحين، فإن ازدواجية الحياة تنعكس على سلوكنا، فإذا هي شرور متراكمة، ومع مرور الأيام تتدافع نزوات النفس، ومغالطات الضمير والالتصاق بالأرض،والطمع في متاع الدنيا وشهواتها: كل أولئك يفعل أفاعيله، والموت ينقذنا في لحظة واحدة وبضربة واحدة من كل هذا.

ثم الحياة- فيما لا يدخل تحت اختيارنا- لا تسير على وتيرة واحدة ولا تعطينا كل ما نتمناه على طبق من ذهب، أو حتى من صفيح، كلنا يتمنى قوة في الصحة لا تضمحل، فإذا أقبل المرض كالوحش المفترس، وأنشب في الجسد مخالبه، وأعمل فيه أنيابه،فلا تسل إذ ذاك عن آلام النفس المروعة وعذاب الجسم المستديم.

وألا يكون الموت حينئذ هو الراحة الكبرى سيما إذا أعوز الطب، وعز الدواء، وإلا يكون تمنى الموت إذ ذاك دون جدوى محنة مضاعفة يصدق فيها قول سوفكليس:ليس الموت أسوأ شرور الحياة، فشر من الموت أن نتمناه ولا نلقاه.

أمن الحب والخير في الجانب الإلهي،أو حتى من المقبول في المفهوم البشري أن يظل الإنسان يعذب كل يوم بلا انقطاع، وبلا أمل في النجاة كإنسان الأساطير بروميثيوس[1]،

---

(١) أسطورة يونانية خلاصتها أن الأله قامت بتوزيع المواهب والقدرات على جميع المخلوقات ولما جاء دور الإنسان لم يتبق له شئ، فعطف عليه بروميثيوس ،وسرق له النار وفنونها ،فعاقبته الاله بهذا العقاب (أميره مطر : الفلسفة عند اليونان ص١٢٦).

تأكل لحمه الوحوش المفترسة والطيور الجارحة حتى إذا أتت عليه، عاد كما كان مرة ثانيه، وهكذا دواليك.

أو مثل سيزيف[١] الذي يدفع الصخرة إلى أعلى، وكلما انتهى إلى القمة، سقطت منه إلى السفح ليدفعها من جديد إلى أعلى، وهكذا دواليك؛ عذاب دائم بلا مبرر مفهوم أو حكمة واضحة.

وبعد هذا وذاك، أليس أحيانا يكون اللحاق بالأحبة، أحب من الحياة نفسها حتى بالنسبة للحيوان الأعجم. تحكي الروايات أنَّ في اسكتلندا تمثالاً يسمونه تمثال الوفاء وما هو إلا تمثال كلب حزن على صاحبه الذي مات وأصر على النوم جوار قبره بكل حزن الدنيا مجسماً في ملامح وجهه لا يأكل ولا يشرب حتى أصبح جثة هامدة.

قد تقول: الكلب أشد وفاء من الإنسان! ولكنى أقول إنها قضية كاذبة، إذا أخذت بهذا الإطلاق هذا يهودي، من بني قريظه- فيما يروي ابن كثير –اسمه الزبير بن باطا، استوهبه ثابت بن قيس ليد كانت عنده من الرسول ﷺ وهو يقتل رجال بني قريظة، وفق شروط استسلامهم – واستوهب ماله وولده.

فهل قرت عينه بالعيش الرغيد بعد ذهاب أحبته من سادة قومه؟ كلا ثم كلا، بل جعل يسأل عنهم واحداً واحداً، ما فعل فلان؟ وما فعل فلان؟ حتى أتى على أسمائهم كلها،فلما أجيب بأنهم قتلوا، قال من خلال دموعه المنهمرة: أسألك يا ثابت بيدي عندك، إلا ألحقتني بهم، فما في العيش خير بعد هؤلاء الأحبة، فقدم فضربت عنقه[٢].

لست في حاجة بعد هذا إلى الحديث عن الآثار الواردة في اجتماع الأحبة في أثناء حياة البرزخ، فربما كان فيها قبله بلاغ، وليست دعوة إلى الجزع، بل تبشير بأن الموت يفرق شملا ويجمع شملا، أي أنه يشج بيد ويأسو بأخرى.

وهنا حقيقة هامة لا ينبغي إغفالها إذا يقول زور اليوناني: كل فعل إنساني يحمل

(١) عبد الغفار مكاوي : ألبير كامى ص٤ وما بعدها.
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٤ / ١٢٥

مشكلة أو يؤدي إلى مشكلة،والموت وحده هو الذي لا مشكلة فيه.

فمن هذا المنظور، أليس الموت هو حلال المشكلات،إننا نحب الحياة بكل تأكيد ولكن المشاكل التي تملؤها، تقلل من سعادتنا وتملأ النفس هما وكمدا.

وصدق المعري (ت٤٤٩هـ) إذا يقول:

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في أزدياد

ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم فيم والعيش مثل السهاد

لقد كان صادق مع نفسه، ومع الواقع من حوله: مع نفسه لأنه خبر آلام الحياة، وشرب حتى الثمالة كأسها المريرة المفعمة بهمومها: إذا لم يكف العمي حتى قارنه الفقر والمرض. وكان صادقا مع الواقع من حوله. لأنه لمس ظلم الإنسان، ومحنة البشرية المتمثلة في تناحرها وأطماعها التي لا تنتهي.

ومع هذا فعجبه أغفل طبيعة الفطرة البشرية، فإغراءات الحياة وسحرها للناس لا يقاوم، فعشقوها، و طلبوا الزيادة وأي زيادة.

أما في بيته الثاني فهو يقرر حقيقة هامة: راحة الجسم بعد عناء العيش الذي يشبهه بالسهاد الطويل المحض: أي أن الموت إجازة كبرى لهذا الجسد كي يستريح « فهو إجازة لا تتعرض لشك ولا غموض، يمنحها الله للناس حين يريح منهم الحياة، وحين يريحهم من الحياة.[١]

ومن الجدير بالإشارة إلى أن الموت ما هو إلا إطلاق سراح سجين لأنه تحرير للروح من سجن الجسد- كما يقول إخوان الصفاء- وسجن الحياة الدنيوية الكبيرة، لتنطلق وتطل على عالم جديد كل ما فيه مثير وغريب.

«اعلم أن المؤمن ينكشف له غيب الموت من سعة جلال الله، ما تكون الدنيا إليه كالجب الضيق ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف[٢]».

(١) طه حسين: ألوان ص ٢٩٩
(٢) الإحياء جـ٤ / ٤٩٦ -٤٩٧

وأخيراً، ألا يكفي من نعمة الموت أنا ننقل إلى جوار البر الكريم الغفور الرحمن الرحيم، بعيداً عن الجوار الناقص الذي عرفناه وسئمناه. يقص علينا القرآن الكريم:إن آسيا امرأة فرعون عندما طلبت من الله أن يبني لها بيتا، اختارت الجوار الإلهي، والمعية الإلهية قبل البيت،﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾[1]. فالموت هو الذي سينقلنا إلى هذه المعية الإلهية «والعندية الإلهية» «والقرب الإلهي».

ولما حضرت بلالاً الوفاة قالت امرأته: وا حزناه! فقال: بل واطرباه غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه[2].

وقال مالك بن أنس (ت١٧٩هـ) في العشية التي قبض فيها لعواده عندما سألوه: كيف تجدك؟ ما أدري ما أقول لكم، إنكم ستعاينون من عفو الله تعالى، ما لم يكن في حساب، ثم ما برحنا حتى أغمضناه[3].

وكلموا ذا النون المصري (ت٢٤٥ هـ) وهو في النزع، فقال: لا تشغلوني فقد تعجبت من كثرة لطف الله تعالى معي[4].

وقيل للجنيد (ت ٢٩٨هـ).إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت فقال: لم يكن بعجيب أن تطير روحه اشتياقا. [5]

وفي ختام هذه النقطة،هل لي أن أقول إنه قد تسنى لنا – ولو إلى حد ما – رسم بعض الخطوط العريضة لوسائل تغيير أفكارنا نحو الموت، حتى لا نلقاه بكل ذلك الرعب والهلع؟ لعل وعسى.

«قال أبو علي الرازي:صحبت الفضيل بن عياض (ت١٨٧ هـ) ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكا ولا مبتسما،إلا يوم مات ابنه علي فقلت له في ذلك، فقال: إن الله أحب أمراً

(١) الرسالة القشيرية جـ٢ / ٥٩١
(٢) الرسالة القشيرية جـ٢ / ٥٩١
(٣) الرسالة القشيرية جـ١ / ٤٢.
(٤) الرسالة القشيرية جـ١ / ٣٠٤.
(٥) الرسالة القشيرية جـ١ / ٥٩١.

فأحببت ذلك.[١]

«وحكى عن بعض الصالحين أن ابنا له مات فلم يُر به جزع، فقيل له في ذلك، فقال: هذا أمر كنا نتوقعة،فلما وقع لم ننكره»[٢].

فليكن لنا في مثل هذين الرجلين الصالحين أسوة حتى والموت ينتزع أنفسنا نحن من بين جوانحنا.

ثالثا: مواجهة الموت:

المواجهة بين الموت والإنسان – كما سلف أن قررنا – مواجهة حاسمة، معلومة النتائج وكل ما يستطيع الإنسان أن يتسلح به لهذه المواجهة فليس طبعا لسحق الموت أو حتى تخفيف قبضته الحديدية، وإنما هو لتوطين النفس على النهاية المحتومة، وتدريبها على الرضا بالقدر الذي لا بد من نفاذه.

وكثيراً مما سلف مفيد ونافع في هذا الصدد، ولكن إليك مزيد مما يعن للفكر ويتوارد على الخاطر، ونحن جميعاً مع الموت وجهاً لوجه.

١- الصــــبر:

الصبر حالة نفسية أو طاقة روحية تغمر الإنسان وتسلحه بإرادة صلبة لا تلين، وجلدا وقوة احتمال لا تنوء بالأعباء الثقال من المصائب والآلام سيان في الموت أو في الحياة ولعلها أجدى ما يلوذ به الإنسان في كل مالا قبل له بالتصدى، لصده أو رده على أعقابه.

ومن ثم ركز القرآن الكريم عليها، وبصر المسلمين بقيمتها في الدنيا ومثوبتها عند الله.

يقول سبحانه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾.

– ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ● الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ●

(١) الرسالة القشيرية جـ١ / ٧٣.

(٢) المبرد: الكامل جـ١ / ٣٢٤.

أولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[١].

- ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾.[٢]

- ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.[٣]

ولعلك تلحظ في تلك النصوص الكريم، كيف كان اهتمام القرآن العزيز بالدعوة إلى الصبر حتى لقد قدمها على الصلاة، التي هي عماد الدين إذ كانت أوسع شمولاً، وأوغل في كل زمان ومكان بل وفي كل عمل حتى الصلاة نفسها في حاجة إلى الصبر، أما الصبر فليس في حاجة إلا إلى توفيق الرب وتصميم القلب.

ثم جاءت البشارات تترى للصابرين – لا سيما وقت النكبات – حيث بشرهم بالرحمة والمغفرة.

فالصبر إذن: من القيم الأخلاقية العالية، التي دعا إليها الذكر الحكيم وقد وعد الله سبحانه رسوله الكريم، لتحمل ما لاقي من الصعاب والآلام في سبيل نشر الدعوة الإسلامية. وللموت في ذلك نصيب أي نصيب.

هذا عمه حمزة (ت ٣هـ) أسد الله يلقى مصرعه يوم أحد، ويمثل بجثته، حتى ليتملك الرسول ﷺ الغضب، ويقسم ليمثلن من أجله بثلاثين من أهل مكة، إن قدر عليهم ولكن تنزل الآيات القرآنية، تواسيه وتخفف من غضبه، وتدعوه إلى طمأنينة الصبر وعدالة الحكم:

- ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ● وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ● إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ

(١) سورة البقرة الآيات ٤٥-١٥٥-١٥٧.
(٢) سورة الرعد الآية ٢٢
(٣) سورة الحج الآية ٣٥

اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[1].

وهذه صفية بنت عبد المطلب، أخت حمزة لأبيه وأمه تريد أن تلقى نظرة على الفارس الصريع، فلما أمر الرسول ﷺ ابنها الزبير بردها كيلاً ترى أخاها وقد مثل به.

قالت: ولم وقد بلغني أن قد مثل بأخي وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله، فما زادت على أن صلت عليه واستغفرت له، واسترجعت.

وعن أبي يحي صهيب بن سنان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»[2].

ومواقف صحابة الرسول ﷺ في هذا المجال كثيرة، حتى أن الخنساء التي ملأت في جاهليتها الدنيا حزنا وبكاء وعويلاً وشعراً على أخيها صخر، عندما استشهد أبناؤها الأربعة – وقد خلقها الإسلام خلقا جديدا – قالت: الحمد الله الذي شرفني باستشهادهم قبل موتى، اللهم اجمعني بهم في مستقر رحمتك يوم القيامة.

ومما يؤثر قول علي بن أبي طالب (ت٤٠هـ) في بعض تعازيه: «عليكم بالصبر، فإن به يأخذ الحازم، وإليه يلجأ الجازع، وقوله للأشعث بن قيس: «إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت موزور»[3].

هذا أبو حراش الهذلي، وهو أحد حكماء العرب، يذكر أخاه عروة بن مرة، ويعزي النفس لفقده:

تقول أراك بعد عروة لاهيا ... وذلك رزء لو علمت جليل
فلا تحسبني أني تناسيت عهده ... ولكن صبري يا أميم جميل[4]

---

(١) سورة النحل الآية (١٢٦/ ١٢٨)
(٢) رياض الصالحين ص ٢٥
(٣) المبرد : الكامل ج ٤ / ٣
(٤) المبرد الكامل جـ٤ / ١٧ الأغاني جـ ٢١/ ٢٢٢

وهذا إبراهيم بن المهدي يخاطب ابنه الذي لقي حتفه، ويتسلى بأنه سيلقاه يوما إن قريبا أو بعيدا:

وإني وإن قدمت قبلي لعالم ... بأني وإن أبطأت عنك قريب

وإن صباحا نلتقي في مسائه ... صباح إلى قلبي الغداة حبيب [(١)]

وفي مجال الفلسفة، يضطلع الرواقيون بهذه المهمة، حيث كانت فلسفتهم صبراً كاملاً في مواجهة شدائد الحياة وأحزان الموت. ويلخص ابكتيتوس الرواقي (ت ٩٥م). ذلك إذ يقول: احتمل وتزهد يعنى بذلك أن يدعو الإنسان إلى احتمال الأذى والصبر على المصيبة وعلى جميع ما يكدر الخاطر ويقلق البال، ثم الصبر عما فاتنا، والزهد في الأشياء التي تخرج عن مقدورنا»[(٢)]. يقول أحد الحكماء: إن من قل صبره عزب رأيه واشتد جزعه فصار صريع همومه وفريسة غمومه. [(٣)]

خلاصة القول، إن الصبر سلاح يحمله الإنسان في مواجهة الموت، وهو أمضى سلاح، لحمل النفس على تقبل آلامه وتجرع كأسه في النهاية.

٢- الشجاعة في مواجهة الموت:

الموت قادم لا محالة، والأعمار محددة باللحظات لا بالدقائق والساعات، فلماذا نخاف أن نتعرض له؟ عندما يملي العقل ذلك على تفكير الإنسان وسلوكه، يقول شيشرون (ت٤٣ ق.م) أريد أن أموت ولكني لا أبالي أن أموت.

إن هذا المنطق فيه الكثير من الصحة والصدق، فكل منا يحب الحياة ويعشق لحظاتها، لكن علينا أن نقبل الموت عندما يحين حينه برضا وطمأنينة.

ووقائع التاريخ تحكي الكثير عن أولئك الذين واجهوا الموت بإقدام وشجاعة منقطعة النظير، وقد كان لصحابة الرسول ﷺ، قصب السبق في هذا المضمار.

هذا خالد بن الوليد، القائد المظفر، وسيف الله المسلول، يخوض من المعارك ما قد

(١) المصدر السابق ص ١٨

(٢) لفلسفة الرواقية ص ٢٠٣

(٣) الماوردى:أدب الدنيا والدين ص ٢١٧.

يتجاوز الحصر، ويواجه الموت كفاحاً في ميادين القتال، فلا يأتيه إلا وهو على فراشه، فيقول كلمته الخالدة: لقد شهدت كذا و كذا زحفاً وما في موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت العير (حمار الوحش)، فلا نامت أعين الجبناء!![١]

وهذا حنظلة بن أبي عامر بطل أحد، يلبي نداء المعركة ليلة عرسه فتغسله الملائكة.

ومنهم من ألقى تمرات من يده كان يأكلها قائلا إن عشت حتى آكل هذه التمرات[٢] إنها لحياة طويلة وتقدم حتى استشهد قائلا: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾.[٣]

والتابعون أيضا واصلوا السير على درب: إحرص على الموت توهب لك الحياة.

فهذا سعيد بن جبير (ت ٩٥هـ) قدم حياته فداء لإعلاء شأن الإسلام، وتحديا للقوة الباطشة المتجبرة، حين قتله الحجاج بن يوسف الثقفي.

وأبو منصور الحلاج (ت٣١١هـ) قتلته السياسة، وصلبته على صليبها الخسيس، فلم يجبن ولم يتراجع.

والفرق الإسلامية في تنازعها وصراعها قدمت مئات من الأبطال، لا سيما الخوارج الذين كانت جرأتهم فيما يعتقدونه الحق، واسترسالهم إلى الموت مثار الدهشة والإعجاب.

حتى الذين نسميهم أصحاب الأهواء من ذوي النحل المختلفة، يجودون بأنفسهم في سبيل ما يعتقدون دون تهيب أو وجل.

فالموت هو الموت، فلماذا ننكص على أعقابنا ولله دره المتنبي إذا يقول:

إذا غـــامرت في شرف مــــروم ... فـــلا تقنـــع بـــما دون النجـــوم
فطعـــم المـــوت في أمـــر حقـــير ... كطعـــم المـــوت في أمـــر عظـــيم[٤]

(١) ابن قتيبة : المعارف ٢١٦
(٢) رياض الصالحين ص ٥٧.
(٣) سورة طه الآية ٨٤
(٤) ديوان المتنبي ص ٢٣٢

وإذا لم يكـــن مـــن المـــوت بـــد   فمـــن العجـــز أن تكـــون جبانـــا[(١)]

ومن أولئك الذين واجهوا الموت بشجاعة عجيبة، هدبة بن خشرم العذري وكان قتل زيادة بن زيد العذري،وحكم عليه بالإعدام في عصر معاوية، ولما خرج ليعدم «بالحرة» جعل ينشد الأشعار فقالت له حُبي المدينية: ما رأيت أقسى قلبا منك! أتنشد الأشعار وأنت يمضى بك لتقتل؟ فأنشد:

ولست بمفراح إذ الدهر سرني   ولا جازع من صرفه المتقلب

ثم أقبل على أبويه فقال:

ما أظن الموت إلا هينا   ان بعد الموت دار المستقر [(٢)]

ونختم هذه النقطة ببعض التأملات العميقة لرجال التصوف المعتدل.

يقول الحارث المحاسبي (ت٢٤٢ هـ): « استعد إذا جاءك الموت لا تسأل الرجعة [(٣)].

وقيل لبعض الصوفية وقد أظهر الشجاعة في مواجهة الموت: « أتحب الموت؟

فقال: القدوم على من يرجى خيره خير من البقاء مع من لا يؤمن شره [(٤)]

٣- طرافة رحلة الموت:

من الخصائص النفسية للإنسان حبه لاستكشاف المجهول، ورغبته العارمة في البحث عن الطبائع الخفية للأشياء، ومحاولته الدائبة لاكتناه أسرارها، وقد قدم حياته رخيصة من أجل اكتشاف هذا المجهول: سواء غاص في أعماق البحار، أو حلق في أجواز الفضاء، أو داخل المعامل والمختبرات وكثير من هذه النتائج العلمية التي توصل إليها كان ثمنها غاليا.

---

(١) ديوان المتنبي ص ٤٧٤

(٢) المبرد : الكامل جـ٤ / ٨٥ : ٨٧ وقد أورد الأصفهاني قصته كاملة ، ومقتطفات من أشعاره (الاغاني ص ٢٥٤ – ٢٧٢).

(٣) طبقات الصوفية ص ١٧

(٤) الرسالة القشيرية جـ ٢ / ٥٩٧

وهل نسينا قصة عباس بن فرناس الذي بدأ أول محاولات الإنسان لركوب الهواء (الطيران) والكشف عن أسرار لم يتوصل العلم إليها إلا أخيراً كانت فيها نفسه.

والكشوفات الجغرافية من عهد كولومبو ومن قبله ومن بعده في اتجاه غرب الكرة الأرضية أو شرقها، أو في اتجاه منابع النيل ومجاهل أفريقيا، أو في اتجاهات أخرى ليس لها حصر تطؤها أرجل الرحالة والمكتشفين من كل لون وجنس، كل هذا بثمن غال.

ورحلة الموت هي من أطرف هذه الرحلات بجميع المقاييس وليس مقياس الطرافة المتعة فحسب، فلو لم يكن فيها إلا استكشاف المجهول لكفي والمشكلة أن كل من يخوض غمار هذه الرحلة قاطعا دروبها لا يعود إلينا كي يقص علينا طرائفها وألغازها؟

على أن من الناس من يصورها متعة خالصة. إذ يمزق كل ما هنالك من أستار مسدلة على أسرار لم يرها أحد قط من الأحياء فيفضي إلى عالم النور والمحبة، ويرقى إلى ذروة الهناءة والسعادة.

يقول أحد العلماء المتخصصين في دراسة عالم الأرواح ولهم باع أي باع في هذا المجال: «عند ما ينقضي أجلنا على سطح الأرض، تعيد الطبيعة هذا الجسم البالي إلى تربتها، وتطلق ذلك البناء الأثيري الذي كان خلال الحياة الأرضية مقيدا بالحدود الفيزيقية.»[١]

أما الشذرات التي نسمعها من هنا وهناك عن طبيعة هذه الرحلة فلا تروى غلة، ولا تثلج صدراً ولا تشغل عقل ظامئ للمعرفة.

على أن الكثرة الغالبة مما تضمنته الكتب الدينية والعلمية في هذا الصدد يبدو كأنه من قبيل التصورات البشرية والأمنيات النفسية.

أعتقد أن رحلة الكشف عن المجهول هذه (رحلة الموت) تعد مطلبا ملحا من مطالب الإنسان المتغلغلة في أعماقه، والتي تؤرق ليله، وتحير عقله حتى إذا ظفر بها فكأنما سخر له بساط الريح الأسطوري، وفتحت أمامه مغاليق المجهول، وآفاق لا متناهية، فيها

---

(١) على حافة العالم الاثيري ص ١٩٩

مالا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

٤- استمرارية الحياة:

على الإنسان أن يكون عنده اعتقاد جازم بل يقين واضح، أن الموت لا يعني استئصالا لجذور هذه الحياة. وأن الحياة مستمرة ومتجددة وموته لا يعني نهاية لها أو لهذا الكون.

والإنسان نفسه مستمر أيضا بشكل ما، وعلى نحو خاص، ونستطيع أن نجمل أوجه هذه الاستمرارية في العناصر التالية:

أ- الإنسان جزء من النوع الإنساني الذي لا ينقرض، بل يستمر تناسله وتوارثه للأرض فهو بمعنى ما مستمر في الحياة ممثلا في شخص الإنسان والإنسانية.

يقول ديورانت: « إذا كان من وظيفة الفلسفة أن تخلع على الحياة معنى يقلل من قيمة الموت فستبين الحكمة أن الفساد إنما يصيب الجزء (الإنسان) وأن الحياة نفسها لا تموت حين تموت »[١]

ب- أولاد الإنسان من بعده، امتداد لحياته - سواء أكانوا سلالة نسبية أم روحية تعليمية - وإلى شيء من ذلك يشير القرآن الكريم إذ يقول: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾[٢].

فالإنسان يحب ولده، لأنه يخلفه في الوجود بعد عدمه، فيكون في بقاء نسله نوع بقاء له، فلفرط حبه في بقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه، لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبداً[٣].

وكذلك حديث الرسول ﷺ: «إذا مات ابن آدم أنقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة

(١) مباهج الفلسفة جـ ٢ / ٣٠٥

(٢) سورة النحل الآية ٧٢

(٣) الإحياء جـ ٤/ ٢٩٧، ٤٥٦، وأيضا في ظلال القرآن جـ١٤ / ٢٦٣ (تفسير سورة النحل)

جارية، أو ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به»[١].

ويقف شوبنهور (ت ١٨٦٠م) أمام هذه النقطة بشيء من التساؤل والتأمل فيقول: « ألا نستطيع أن نهزم الموت أيضا؟

بلى، يمكن أن نهزم الموت بالتناسل والتضحية من أجله.

فكل كائن طبيعي عند بلوغه مبلغ النضج يسارع في التضحية بنفسه من أجل التناسل: وذلك ابتداء من ذكر العنكبوت والزنبور، حتى الإنسان، والتناسل هو الهدف الأقصى لكل كائن، وغريزته الأقوى لأنه بذلك يستطيع أن يهزم الموت »[٢]

ويقول الشاعر محمد إقبال (ت١٩٣٩ م) في تأملاته للآية الكريمة: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى﴾[٣] الفكرة الأساسية هنا تشير إلى رغبة لا تقاوم في الحصول على ملك لا يبلى، ولكن لما كان الإنسان كائنا فانيا يخشى انقضاء سيرته بموته، لم يكن أمامه من سبيل إلا أن يحقق نوعا من الخلود الجماعي بالتكاثر والتوالد[٤].

وهذا يوضح لنا منشأ تلك الرغبة العارمة عند الإنسان في التناسل وحرصه الدائب على الإنجاب وسعيه الحثيث في سبيله وربما طلب ذلك بكل وسيلة ممكنة شرعية وعلمية.

ج – ما خلف الإنسان من الطيبات التي تتجلى في الأعمال النافعة، والأفعال الكريمة التي تبقى الألسن رطبة بذكراها، وأيضا توجيهاته الصالحة لأبناء مجتمعه وتوجهاته النافعة بالخير عليهم، وكتبه واجتهاداته، إذا كان قد ترك لنا أفكارا تنير الطريق لمن يأتي بعد.

وهذا مصداق قول الرسول ﷺ: «أو صدقة جارية أو علم ينتفع به».

---

(١) رياض الصالحين ص ٣٧١

(٢) أحمد معوض: شوبنهور ص ١٠٨ والدكتور بدوي شوبنهور ص ٢٤٥

(٣) سورة طه الآية ١٢٠.

(٤) تجديد التفكير الديني ص ١٠٢

د- في قلوب وعقول من أحبوه:

فالإنسان الذي رحل موجود على نحو خاص، فالذين أحبوه يحملون ذكراه في قلوبهم ويكنون له كل الوفاء والحب، تردد الألسن اسمه وتلهج بالثناء على سيرته الذكية وذكراه العطرة. وهو موجود في عقولهم يهتدون بتعاليمه، ويقتفون خطواته، ويتابعون ما انتهى إليه. إذا فهو الغائب الحاضر، الراحل الموجود، والميت الحي.

وهذا ما نشعر به مع أحبائنا الذين مضوا إلى المصير المحتوم: فنذكرهم دائما، ونردد سيرتهم ونتصور مواقفهم، ونعيد حكاياتهم، ونقص نوادرهم. فيعيشون معنا وهو غائبون، ويحضرون في قلوبنا وعقولنا وهم ذاهبون يقول أحد الصوفية: « العبرة أن تجعل كل حاضر غائباً، والفكرة أن تجعل كل غائب حاضراً »[1]

ويقول هنريك ابسن: «الشيء الذي نفقده هو وحده الذي نملكه. وما هو كائن لا وجود له، وما ليس كائنا هو الوجود الوحيد»[2].

وقد فلسف هذه النقطة أحد فلاسفة الوجودية بكثير من العمق والإحاطة فأجاد وأصاب إذا يقول:

«إن من شأن الوفاء أن يجئ فيتحدى كل غياب، لأنه يشعرنا بأن المحبوب، لا يمكن أن يموت، وأن الحب نفسه أقوى من الموت.

«وجبريل مارسل» يحاول أن يبين لنا مع سقراط أن تحطم القيثارة لا يعني فناء النغم. ومن هنا يقرر أن ثمة صلة روحية بين الأحياء والموتى بدليل أن هؤلاء الغائبين ليسوا في نظرنا بمثابة موضوعات أو أفكار بل هم شخصيات تظل مرتبطة بوجودنا الشخصي وتظل هناك علاقة ما تجمع بيننا وبينهم.

حقاً قد يستعصى علينا في كثير من الأحيان أن نحدد على وجه الدقة نوع هذه الصلة التي تربطنا بهم ولكن الميت المحبوب قد يبدو لنا في بعض الأحيان وكأنه « حاضر » أمامنا

---

(١) عبد الرحمن السلمي : طبقات الصوفية ص ٦٠

(٢) هنريك أبسن : بير جنت ص ١٢

أو كأنها هو شخص مقنع يدور بيننا وبينه حوار كهذا الذي يدور بين الأنا والأنت ولولا وجود ذلك الاستمرار الحي الذي يجعل من كل ذات حقيقة أونطولوجية تعلو على كل صيرورة ظاهرية والتجربة نفسها شاهدة – كما يقول ما رسل – على إمكان قيام ضرب من التراسل الروحي بين الأحياء والموتى »[١]

٥- وقوع الموت من أفعال الله الخيرة:

لقد سلف تحت عنوان: « الموت ليس شراً كله » ما قد يغنى عن العودة إلى الموضوع تحت عنوان جديد، ولكني أود أن أعرض هنا بعض نماذج فلسفية قد يكون فيها أو في مناقشتها بعض العون في مواجهة الموت لشتى صنوف بني الإنسان.

تقبل وقوع الموت كفعل من أفعال الله الخيرة، يعد أمضى وأقوى سلاح، لنؤمن أن الإرادة الخيرة هي التي اختارت هذه النهاية الطيبة، وعلمه الأزلي قد قرر لنا ما هو خير وما هو شر.

المطلوب من الإنسان هو التسليم المطلق للإرادة الإلهية، وتقبل كل ما اقتضته من وقائع مهما غمضت علينا أغراضها، وتعذر علينا فهم الحكمة الكامنة وراءها اعترافا بقصور عقولنا عن اكتناه المحدود، فما بالك ما وراءه.

ولنصغ بكل جوارحنا، ونستوعب بكل عقولنا، ونؤمن بكل ضمائرنا، ما يقوله هؤلاء الحكماء والفلاسفة.

ونبدأ بفيلسوف الرواقية، ابيكتيتوس الذي يقف طويلاً محللاً لنا طبيعة الأشياء ويفرق بين نوعين منها: أشياء تتعلق بقدرتنا واختيارنا وأشياء لا تتعلق باختيارنا ولا قدرة لنا عليها « هذا الفهم لحقيقة الأشياء يرشد الإنسان إلى أن حصولها أمر ضروري وأن تجعله يذعن لحدوثها ويقبلها كما هي، وكما أوجدها مصرفها الأعظم، دون أن يطمع الإنسان في تغييرها أو تبديلها وفقاً لرغباته أو يناله منها كدر أو ابتئاس:« إن ما يحدث

---

(١) زكريا إبراهيم : دراسات في الفلسفة المعاصرة ص٥٠٠

للناس من اضطراب ليس من جراء الأشياء، بل من جراء أحكامهم على الأشياء »[1]

بهذا الفهم العميق لحقيقة الأمور يهمس ابيكتيوس للإنسان قائلاً: ما الذي يجب علينا أن نريده؟ أمر واحد. أن نريد ما أراده الله. عند ذلك يتلاشى.الخوف من أنفسنا، وتنعدم الشكوى ويبطل التذمر.

ثم يقول ابيكتيتوس موجها حديثه لتلميذه: إنك عندئذ لن تكون كأبطال المسرحيات، ولن تقول للإله، كما قال بريام والد هكتور بطل تروادة، عندما بلغه دمار المدينة وموت أفراد أسرته، لن تقول مثله للإله: أهذا ما كنت تدخره لشيخوختي « إنك ستقول مثل سقراط قبل موته: لتكن مشيئتك يا إلهي ».

ثم يواصل ابيكتيتوس نصائحه قائلاً: «لا تقل فقدت شيئا، بل رددته مات ابني، بل رددته أو ماتت امرأتي، بل رددتها، وقل ذلك عن سائر الخيرات والأشياء».

واعتبر نفسك في هذا العالم كما يعتبر المسافر نفسه في فندق من الفنادق وعليك ألا ترغب في أن تتم الأشياء على النحو الذي تريده أنت، بل عليك أن تريد أن تتم الأشياء على النحو الذي تتم هي عليه.

تذكر أنك في هذا العالم كممثل، تلعب في مسرحية هذا الدور الذي اختاره لك صاحب المسرح.

إن أعطاه لك قصيراً فليكن قصيراً، و إن كان طويلاً فالعبه طويلاً.

أما اختيار الدور فهو من شأن غيرك. إذا وضعت الموت والمصائب كلها نصب عينيك، فلن تقلق من أي شيء ولن تسرف في أي رغبة[2].

وفي آخر نصائحه يقول ابيكتيتوس: « لنتوكل على الله، ونحن واصلون في رحلة الحياة إلى مقرنا بأمان.

ولنتعلم أن نريد ما أراد الله وأن لا نريد مالا يريد: ولنتق فتنة المصائب. فإذا أراد الله

---

(١) عثمان أمين : الفلسفة الرواقية ص ٢٠٠ : ٢٠١.

(٢) نجيب بلدي : مراحل الفكر الأخلاقي ص ٢٩ -٣٢

أن يسترد ما منح، فلنكن له حامدين ولفضله شاكرين[١].

وإذا انتقلنا إلى الفلسفة الإسلامية نجد الرئيس ابن سينا (ت٤٢٨ هـ) يقول في الرسالة التي وقفها على مناقشة مشكلة الموت: « إن الحكمة الإلهية البالغة والعدل المبسوط بالتدبير المحكم، هو الصواب الذي لا معدل عنه، وهو غاية الجود الذي ليس وراءه غاية فالخائف من الموت هو الخائف من عدل الله وحكمته، بل هو الخائف من جوده وعطائه. [٢]

ويقول أبو سليمان الداراني (ت٢٥١ هـ)

«علموا النفوس الرضا بمجاري المقدور، فنعم الوسيلة إلى درجات المعرفة[٣] ويقول رويم بن أحمد البغدادي: المحبة هي الموافقة في جميع الأحوال وأنشد:

ولو قلت لي: مت، مت سمعاً وطاعة وقلت لداعي الموت: أهلاً ومرحباً[٤]

ويزيد الإمام الغزالي(ت ٥٠٥هـ) هذا المعنى إيضاحا إذ يقول:

«ينبغى أن تحب من لا يفارقك، وهو الله تعالى، ولا تحب ما يفارقك، وهو الدنيا، فإنك إذا أحببت الدنيا، كرهت لقاء الله تعالى، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه وفراقك لما تحبه، وكل من فارق محبوباً، فيكون أذاه في فراقه بقدر حبه»[٥].

ولكن كيف تحب من لا يفارقك؟ بالمجاهدة في الله، والهجرة إليه، وهي تتأتى لمن يتجافى عن دار الغرور وينيب إلى دار الخلود، ويردد خاشعاً مع موسى الكليم: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾[٦] وأني مهاجر إلى ربي «فالهجرة هنا روحية وجسمية، وقوف في محراب الله يقارب درجة الفناء، وكل عمل تتوخى فيه وجه الله هو عبادة محضة.

---

(١) عثمان أمين : المصدر السابق ٢٠٥

(٢) رسالة في دفع الغم من الموت ص ٤٢

(٣) عبد الرحمن السلمي : طبقات الصوفية ص ٢١

(٤) المصدر السابق ص ٤٣

(٥) الإحياء جـ ٤ / ٢٠٥

(٦) سورة طه الآية ٨٤

ثم لنقف مع النفرى (ت ٣٥٤هـ) تأكيداً لهذه اللمحة نتأمل مخاطباته للروح الأعظم، وهو يقف في مقام الموت:

أوقفني في الموت فرأيت الأعمال كلها سيئات؛ ورأيت الخوف يتحكم على الرجاء ورأيت الغنى قد صار نارا ولحق بالنار، ورأيت الفقر خصماً يحتج، ورأيت كل شيء، ورأيت الملك غروراً، ورأيت الملك خداعاً وناديت يا علم، فلم يجبني. وناديت يا معرفة، فلم تجبني ورأيت كل شيء قد أسلمني،ورأيت كل خليقة قد هرب مني، وبقيت وحدي، وجاءني العمل فرأيت فيه الوهم الخفي، فما نفعني إلا رحمة ربي، وقال لي: أين علمك فرأيت النار. وقال لي: أين عملك، فرأيت النار.

وقال لي: أين معرفتك، فرأيت النار. وكشف لي عن معارفه الفردانيه فخمدت النار[1].

بيد أن هنا نقطتين يجب أن نناقشهما

النقطة الأولى:

قول الأديب وليام هازليت – وهو بصدد التهوين من الموت: لعل العلاج الأمثل للخوف من الموت، أن نذكر أن الحياة لها بداية كما لها نهاية وأنه كان بالأمس زمن لم نكن فيه، فلماذا يشغلنا إذن إن يجيء غداً زمن لا نكون فيه.

فالمغالطة في هذا الكلام واضحة كما يلاحظ العقاد (ت١٩٦٣م) إذ يقول: هذا كلام بليغ في الأسلوب الخطابي الذي يقوم على التزويق، وعلى القياس مع الفارق البعيد أو القريب.فإن الفرق ظاهر بين ماض لم أفقده، لأنني لم أكن موجودا فيه، وبين مستقبل سأفقده لأنني وجدت في الحاضر، ثم أنقطع بي الوجود قبل الوصول إليه. [2]

والذي يبدو لي أن الأستاذ العقاد وفق في الشق الأول، ولكن لم يوفق في الشق الثاني: فالمستقبل شيء لم أحصل عليه، فكيف أفقد شيئا ليس في حوزتي لا يمكن أن يستوي في

(١) المخاطبات ص٣٥
(٢) العقاد :بين الكتب والناس ٤٤٨

نظر الوجود أن تكون قد عشت ووجدت بالفعل وألا تكون قد وجدت أو عشت أصلا في زمن لم يجئ بعد.

إن الشيء الذي يمكن أن يقال - بشيء من التجاوز - أن ما سوف أفقده بالموت، هو نفسي التي بين جنبي، ولكن هذه النفس- وإن كانت بين جنبي فإنها ليست ملكا لي، إنما هي ملك واهب الحياة ومصرف الوجود سبحانه، وهي ليست عندي إلا وديعة وأمانة.

فإذا وطنت نفسي على أنها كذلك هان على الموت - لأن الودائع مستردة - وتقبلته بقلب راض وعقل مطمئن.

النقطة الثانية:

كلمة لأبيقور (Epicurus(ت٢٧٠ ق.م)) الفيلسوف يهون بها من شأن الموت إذ يقول إن الخوف من الموت من فعل المخيلة تتخيل الجسم الميت ذا حساسية فيأخذنا الرعب من ظلام القبر وتعفن الجسم. أما الحكيم فيعلم أن الموت فناء تام، ويعلم أنه حين نوجد فليس يوجد الموت، وحين يوجد الموت ننعدم لذلك يبطل خوفه منه. [١]

وهذا كلام سقيم لا يتفق بحال من الأحوال مع التوجه الديني السليم؟

لكن عذر أبيقور أنه عاش في عصر حرم من نعمة النبوة وأنوارها، لأني وأنا موجود فالموت ملازم لوجودي في كل آن أرتب حياتي في كل خطوة من خطواتي وفي كل همسه من همساتي، حتى تتسق مع الواقع الديني، ولولا ذلك لضاعت حيلتي وخسرت كل شئ.

وإذا وجد الموت، فإنني أشعر به شعورا مضاعفا -لا يستطيع أن يجحد ثقل وطأته أحد كان- حيث أتحرر من أثقال المادة، وينكشف عنى الغطاء فيصبح البصر حديدا.

أضف إلي ذلك، عندما يواجه الإنسان الموت تبدأ مرحلة المساءلة والمسئولية، لمواجهة الحساب والعقاب، أي أن وجودي المادي والمعنوي يتأكد ويتثبت مع وجود الموت.

---

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٢١ وأيضا الدكتور عبد الرحمن بدوي خريف الفكر اليوناني ص ٦٨.

يقول جبران خليل جبران (ت١٩٣١م) «إن النفس التي ترى ظل الله مرة لا تخشى بعد ذلك أشباح الأبالسة والعين التي تكتحل بلمحة واحدة من الملأ لا تغمضها أوجاع العالم»[1].

٦- البعث والخلود:

لا أذكر ذكرت سلاحاً أعظم من هذا السلاح « الاعتقاد في البعث والخلود » لكي يواجه به الإنسان الموت بشجاعة نادرة.

أليس الموت حينئذ مجرد ضجعة في أحضان الملكوت، ثم يقوم لرب العالمين وهو الأهم والأعظم.

ليس الموت إذن ذلك الشيء الرهيب الذي يقدنا مجانا وبلا ثمن وليمة شهية للحشرات وخشاش الأرض ثم لاشيء بعد.

الموت بين يدي البعث مرحلة انتقالية تقود البشر إلي المحط الأخير الذي يختلف في خصائصه وطبيعته عن المحط الأول.

هو حدث عابر، من حوادث الحياة المتكررة،كإغفاءة عامل مكدود بعد يوم عمل طويل وعناء متواصل، بعدها يفيق ليتقاضى أجره، ولنتذكر في تقريب هذا المعنى للأذهان،أولئك الفتية الذين آمنوا بربهم، ولبثوا في الكهف زهاء تسع وثلاثمائة من السنين في سبات متصل، ذلك أنهم عند ما بعثهم الله من مرقدهم، ظنوا انهم لبثوا يوما أو بعض يوم! كأن الزمن للنائم والميت، له مقاييسه الخاصة المغايرة لمقاييس زماننا الآلي.

والبعث بعد الموت، كما هو مقرر في الأديان السماوية، قاعدة أساسية في الديانة الإسلامية لكل من الروح والبدن، ليكون الجزاء وفاقاً.

والقرآن حافل بالدلائل البينات على بعث الأجسام، بصور مؤثرة من مشاهد هذا البعث وحسبنا أن نسوق هنا لكل متشكك أو مكابر، هذا القياس القرآني البعيد الأثر، البالغ الإقناع، قياس الغائب على المشاهد ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ

---

(١) الأجنحة المتكسرة ص ٢٣٢ (الأعمال الكاملة)

اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

هذا البعث «هو الطور الأخير من أطوار تلك النشأة، وبعده تبدأ الحياة الكاملة المبرأة من النقائص الأرضية، ومن ضرورات اللحم والدم، ومن الخوف والقلق، ومن التحول والتطور لأنها نهاية الكمال المقدر لهذا الإنسان»[٢].

أليس هذا إذن هو للصالحين أعظم ما تطمح إليه النفوس، وتتشوق إليه القلوب، وتتعلق به الآمال؟

هذا هو سقراط الحكيم (ت٣٩٩ ق.م) يقرر بواسطة الفطرة الإيمانية الكامنة في أعماق الإنسان، وبصدق حدسه البشري، وسعة أفقه، وتأملاته العميقة حقيقة الخلود وأن الفناء لا يصيب منا إلا أجسامنا الهشة، أما الروح فباقيه في عالم الملكوت الأعلى مبرأة من كل شهوات الجسد، وشوائب المادة.

لنصغ إليه في وصيته الأخيرة وقد التف حوله تلاميذه يستمعون آخر شذرات الذهب قبل أن يتناول كأس الموت يقول موجها كلامه لأقريطون:

إني لا أحب لك أن تتحسر على جدي العاثر، بأن ترتاع لدفني، فتأخذك الحيرة على هذا النحو نكفن سقراط، أو هكذا نشيعه إلى القبر أو نواريه التراب أي عزيزي أقريطون، قل إنك لا تقبر مني إلا الجثمانية، فأقبره على النحو الذي جرى به العرف، وكما تفضل أن يكون[٣].

ثم يؤكد لهم حقيقة الخلود قائلا: لو كان الموت خاتمة كل شيء لكانت صفقة الأشرار في الموت رابحة، لأنهم سيغتبطون بخلاصهم، لا من أجسادهم فحسب، بل من شرهم ومن أرواحهم معاً.

---

(١) سورة الحج الآية ٥، ٦

(٢) ظلال القرآن جـ/ ١٨ (سورة المؤمنون).

(٣) محاورة فيدون ص ٢٠٥ .

أما وقد اتضح في جلاء أن الروح خالدة، فليس من الشر نجاة أو خلاص إلا بالحصول على الفضيلة السامية والحكمة العليا [١]

ثم يقول حكمته المدوية: « إذا تحطمت القيثارة فهذا لا يعني فناء النغم[٢]».

وإنها لكلمات ذهبية حقا، تلك التي فاه بها يوحنا فم الذهب إذ يقول: « إذا لم يكن لك قيامة، فيكون الإنسان أحقر من الأشياء التي خلقت لأجله لأن السماء والأرض أبقى منه وأثبت، وبعض الحيوانات الخسيسة أطول منه عمراً »[٣]

وفي هذا المعنى يقول باحث معاصر: ما أتفه الحياة إن لم يكن خلود! وما أضيق الأمل إن لم يكن غير هذه الحياة، وما أضيع العدالة إن فقدت الدنيا ولم تكن آخرة » [٤]

وصدق القديس أوغسطين (ت٤٣٠ م) إذ يتحدث بلهجة المؤمن الواثق عن رحلة الموت التي سيقت إليها أمه: « احتفلنا بالمأتم بلا صراخ ولا نواح، لأن أمي ليست ذاهبة للفناء التام، وموتها لا يدعو للتحسر، فهذا الموت لا يعد موتاً كاملاً ولكنه طريق موصل للحياة الخالدة [٥]»؟

وفي هذا المعنى يقول أبو حيان التوحيدي: « إننا حينما نغادر هذه الحياة الفانية، ثم نبعث من جديد، ذلك سوف يكون على نحو أفضل كثيراً فمثلاً العين الباصرة، تستطيع أن تبصر بها العالم على نحو أفضل من ذاك الأبصار وهي آمنة من الأمراض المكروهة وهذا ما يرغبه أي إنسان وافر أو ناقص » [٦]

ويربت ابن عربي (ت٦٣٨ هـ) صاحب وحدة الوجود - بيده الحانية على كتف الإنسان، يطمئنه كيلا يجزع من الموت ولا يخاف، لأنه: «لن يصيب منا إلا صورنا

(١) المصدر السابق ص ١٩٥.
(٢) المصدر السابق ١٦٠.
(٣) ميخائيل مينا : علم اللاهوت ص ٢٢٤
(٤) أحمد أمين : فيض الخاطر جـ٤ / ١٦٦
(٥) الإعترافات ص ١٨٨
(٦) الإمتاع والمؤانسة جـ٣ / ١٢١

المحسوسة:أي أجسامنا فإن فنيت هذه الأجسام، بقينا بحقائقنا في صورنا المعقولة والمثالية»[(١)].

خلاصة القول: إن الإنسان باعتقاده الراسخ في البعث، كما صورته الآن النصوص الدينية وشد أزرها صريح العقل، ينتصر فعلا على الموت: بمعنى أنه لن يرى الموت حينئذ إلا فترة مؤقتة من النوم العميق في أحضان الملكوت الأعلى، لتعقبها.الصحوة الشاملة لبداية حياة جديدة حافلة للصالحين بها لذ وطاب، خالدة إلى غير نهاية.

والإنسان بفهمه العميق لأبعاد الحياة والموت، يستطيع أن يعلن بوضوح مع سقراط:أنه يرغب في الموت لأنه راسخ العقيدة في خلود الروح.

وأنه ذاهب إلى إله ذي خير وحكمة.

وإلى الراحلين من الرجال، وهم يفضلون هؤلاء الذين أُخلفهم ورائي وأنه يرجو أن يصيب في العالم الأخر بعد الموت أعظم الخير.[(٢)]

* * *

(١) أبو العلا عفيفي : التعليقات على فصوص الحكم ص ٢٧٠
(٢) محاورة فيدون ص ١٢٢

خاتمة



من هذه الدراسة التي دارت حول الإنسان، ومصيره، ونهايته التي لا بد أن ينتهي إليها، نصل إلى مجموعة نتائج تفرض نفسها بطريقة تلقائية وأهم هذه النتائج:

* أكرم مخلوق على هذه الأرض هو الإنسان، ذو الأبعاد المتعددة المفكر والمبدع والمائت. الذي يعيش الماضي والحاضر والمستقبل، يحكم بالماضي ويعيش الحاضر ويأمل في المستقبل، وفي قلبه وعقله من شتى الصور ما يبهر ويحير ويضحك ويبكي.

ومن خصائص هذا المخلوق العجيب أطوار نشأته التي تبدأ من رحم أمه وتنتهي بالخلود في جوار ربه

بديهي أن ليس الإنسان هو الموجود الوحيد على ظهر البسيطة، بل هو أقل موجوداتها من حيوان ونبات وجماد. إلا أنه بعقله يمثل القمة وهذه الموجودات من أجله خلقت وسخرت له، فإذا قد كتب عليه الموت فقد كتب عليها هي أيضا الفناء والعدم.

* الله سبحانه وتعالى هو الحي، العالم، القادر، المريد، وهو السميع البصير المتكلم، وهو الأول والآخر، والواحد الذي لا يتعدد، والأحد الذي لا يتجزأ، له الأسماء الحسنى، والكمال المطلق.

وإذا كان لنا نحن شيء من ذلك، فإنما هي أمور نسبية متناهية. وكذلك هي حياتنا وهذه الحياة التي نعيشها، وهو سبحانه الذي قرر طبيعتها وأودعها خصائصها وأعطى كل شيء خلقه، وما علمنا عن خلقه وأسراره إلا القليل القليل.

اصغ معي إلى هذا المتفلسف الأديب «فإذا أمعنت النظر وتيقنت أن الله عز وجل في خلقه أحكامه لا يعاز عليها ولا يغالب فيها، لأنه لا يبلغ كنهها ولا ينال غيبها، ولا يعرف قابها (القدر) ولا يقرع بابها. وهو تعالى أملك لنواصينا، وأطلع على أدانينا وأقاصينا، له الخلق والأمر وبيده الكسر والجبر، وعلينا الصمت والصبر إلى أن يوارينا اللحد والقبر [١]

«اللهم لا شكاية لقضائك، ولا استبطاء لجزائك، ولا كفران لنعمتك ولا مناصبة لقدرتك»[٢].

ثم استقم على الطريقة، وردد بصوت خاشع، متدبر، واع ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾.

وإذا حالت دونك الحوائل أو وهن منك العزم، وقصرت الحيلة، فعلى الإنسان أن يتصل بالقوة الكبرى، ويستمد منها العون حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة، حينما تواجهه قوى الشر الباطلة والظاهرة، حينما يثقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامح، وحينما تثقل عليه مجاهدة الطغيان والفساد»[٣].

* إذا حاول الإنسان أن يتفهم الأسرار الإلهية داخل الكون، فلن يستطيع أن يسبر أغوارها، لكنه بلا شك يستطيع أن يقف على الحكمة وراء الكثير من الأفعال والوقائع، ويتفهم الكثير من المعاني المعقولة لما يبدو لنا في الحياة كأنه محض شرور.

وقديماً وحديثاً كم تساءل الناس عن السر الكامن وراء خلق الله الكثير من الحيوانات المفترسة، والهوام والحشرات الضارة، وقد تأمل في ذلك القاضي عبد الجبار – قاضي القضاء وأحد شيوخ المعتزلة المتوفي عام ٤١٥هـ وسجل نتائج تأملاته كما يلي:

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء جـ١٦ / ٢٥ والنص رسالة من أبي حيان التوحيدي إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد.
(٢) رسائل الخوارزمي ص ١٠.
(٣) في ظلال القرآن جـ٢ / ١٩٧ – ١٩٨ (البقرة)

«أن لها منافع كثيرة دنيوية ودينية: فنحن نأخذ من الحيات والعقارب ترياقا لدفع السموم، ثم إننا عندما نرى صور الحيوانات الكريهة المؤذية نكون أقرب إلى الاحتراز من عذاب الله الذي هو أشد وأضر، ولعل الله يخوفنا بهذه الحيوانات، لنعلم أن عنده على الأقل من جنس ما نشاهده الآن، حتى نزد جر ونرتدع[١]».

والمقصود أن على الإنسان أن يؤمن إيمانا لا لبس فيه، أنه ما من شيء يقع على هذه الأرض إلا وهو مقدر في الأزل، لا ارتجالا ولا عبثا، بل لحكمة بالغة علمنا أم جهلنا حتى المحن والمصائب، فرُبَّ نعمة في طي نقمة.

ومحنة الموت ليست استثناء وهي محنة الإنسان الكبرى، ولكن بعدها نعمة، الخلود في الحياة الأبدية، ورؤية الله في الآخرة (على اختلاف العلماء في طبيعة الرؤية).

* علينا أن نتقبل الموت بنفس راضية، وتسليم مطلق،على أنه قانون أزلي للحياة والأحياء وأنه لا يعدو أن يكون غفوة في عالم الغيب،أو استجماما موقوتا، نستأنف بعده رحلة الخلد مع الأبرار والأطهار- إن كنا صالحين - أي أن الحياة لا تنقطع، ولكنها تمضي موصوله الحلقات على الاختلاف في الطبائع والآثار.

* الحياة في الجملة سلسلة من الآلام، وسجل حافل بالمشكلات، ونحن نصبر ونصابر فلماذا لا نتقبل الموت ضمن هذه المنغصات العديدة إن في أنفسنا،وإن في أحبابنا وأهلينا. هذا إن أخذناه على أنه إحدى المنغصات حقا.

ولنذكر كلمة هذا المتأمل: «لا تحزن لأن الحزن على الأموات غلطة من أغلاط الأجيال الغابرة، بل أتل على مسمعها أحاديث الفرح وأنشد أغاني الحياة فتسلوا وتتناسى»[٢].

* علينا أن ندعو دائما لأحبابنا الذين مضوا في الطريق المرسوم، ولقوا ربا كريما. ونبتهل إلى الله أن يعفو عنهم، وأن يتغمدهم برحمته، ويشملهم بعفوه ويفسح لهم

(١) رح الأصول الخمسة ٥٠٦ – ٥٠٧.

(٢) جبران خليل جبران :الأجنحة المتكسرة ص ٢١٨ (ضمن الأعمال الكاملة).

في قبورهم، ويؤنسهم في وحدتهم، ولا أقل من أن نقول للواحد منهم:

«نسأل الذي فجعنا بموتك، وابتلانا بفقدك، أن يجعل سبيل الخير سبيلك ودليل الخير دليلك، وأن يوسع لك في قبرك، ويغفر لك يوم حشرك». [1]

إنه نعم المولى ونعم المجيب، وسلام على عباده الصالحين والحمد لله رب العالمين.

محمد عبد الرحيم الزيني

مدينة صور

سلطنة عمان ١٩ مايو ١٩٨٤م

* * *

(١) المبرد: الكامل جـ٤ / ٨٨.

أهم مصادر البحث

أولاً: المراجع العربية:

١ ابن العبد طرفه (ت ٥٦٤ م) ديوان طرفة بن العبد، دار بيروت للطباعة، بيروت (١٣٩٩هـ -١٩٧٩م)

٢ ابن القيم شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت٧٥١هـ) أقسام القرآن المسمى بالتبيان، المطبعة الميرية، مكة، ١٣٢١هـ
- الروح، ط علي صبيح، القاهرة،١٣٨٦هـ

٣ ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد (ت ٥٩٥هـ)تلخيص الخطابة، تحقيق، د/ عبد الرحمن بدوي، النهضة المصرية، ١٩٦٠م

٤ ابن سينا أبو علي الحسين (ت ٤٢٨هـ) رسالة في دفع الغم من الموت ضمن جامع البدائع نشرة الكردي، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٣٥هـ - ١٩١٧م

٥ ابن طفيل أبو بكر محمد بن عبد الملك (ت ٥٨١هـ) حي بن يقظان، تحقيق أحمد أمين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦ م

٦ أبو العتاهية اسماعيل بن القاسم (ت٢١١ هـ) ديوان أبي العتاهية دار صادر، بيروت، ١٤٠٠هـ -١٩٨٠ م

٧ التهانوي محمد علي الفاروقي من علماء القرن ١٢ هـ، كشاف اصطلاحات الفنون جـ١، تحقيق لطفي عبد البديع، وزارة الثقافة، القاهرة ١٣٨٢هـ - ١٩٦١ م

٨ التوحيدي علي بن محمد بن العباس أبو حيان(ت ٤١٤هـ)
- الهوامل والشوامل، تحقيق احمد أمين،والسيد احمد صقر، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة (١٣٧٠هـ -١٩٥١ م)
- الإمتاع والمؤانسة،ت احمد أمين، واحمد الزيني، لجنة التأليف والنشر القاهرة ١٩٤٢م.

٩ الثعالبي عبد الملك محمد بن اسماعيل (ت٤٣٠هـ) خاص الخاص، قدم له حسن الأمين، مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٦، م.

١٠ الجاحظ أبو عمرو عثمان بن بحر (٢٥٥ هـ) البيان والتبيين أربعة أجزاء، تحقيق عبد السلام هارون، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة (١٩٤٨- ١٩٥٠).

-المحاسن والأضداد، ط السعادة القاهرة ١٣٣٠هـ-١٩١٢م.

١١ الحموي أبو عبدالله ياقوت الرومي البغدادي ت٦٢٦ه معجم الأدباء، تحقيق احمد فريد الرفاعي في عشرين جزءاً، جـ١: جـ٦ مطبعة عيسى البابى الحلبي جـ٧:جـ ٢٠ مطبعة دار المأمون وكل الأجزاء بدون تأريخ.

١٢ الخوارزمي جمال الدين أبو بكر محمد بن العباس (ت ٣٨٣ هـ) رسائل الخوارزمي، المطبعة العثمانية بمصر، القاهرة، ١٣١٢هـ

١٣ الدسوقي عمر، إخوان الصفا، ط الباب الحلبي،القاهرة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧ م

١٤ السجستاني أبو حاتم سهل (ت٢٣٥ هـ) المعمرين من العرب، مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٣هـ-١٩٠٥ م)

١٥ الشناوي كامل (ت١٩٦٥ م) بين الحياة والموت، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢ م

١٦ العقاد عباس محمود (ت ١٩٦٣م) بين الكتب والناس، ط١ دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٦م.

١٧ الغزالي أبو حامد بن محمد بن محمد بن أحمد (ت ٥٠٥ هـ) إحياء علوم الدين، أربعة أجزاء، طبعة دار المعرفة بيروت، بدون تاريخ.

- معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ط محي الدين الكردي، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٤٦ هـ

- معراج السالكين، ط عبد الله السهان، دار الثقافة العربية،

القاهرة، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م
- الرسالة اللدنية، ط صبيح، المكتبة التجارية، القاهرة، د.ت

١٨	القالي	أبو علي اسماعيل (ت٣٥٦ هـ) ذيل الأمالي والنوادر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٠هـ -١٩٨٠ م.
١٩	القشيري	أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (ت ٤٦٥هـ) الرسالة القشيرية جـ١، جـ٢ تحقيق د / عبد الحليم محمود، د / محمود بن الشريف، دار الكتب الحديثة القاهرة بدون تاريخ.
٢٠	الكندي	أبو يوسف يعقوب بن اسحاق (ت٢٥٢ هـ) القول في النفس ضمن رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٠م
٢٧	الماوردي	أبو الحسن علي بن محمد حبيب البصري (ت ٤٥٠هـ) أدب الدنيا والدين، المكتبة العلامية، القاهرة، د.ت.
٢٨	المبرد	أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي (ت ٢٨٥ هـ) الكامل، في أربعة أجزاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
٢٩	النفري	محمد بن عبد الجبار بن الحسن (ت٣٥٤ هـ) كتاب المواقفات، ومعه كتاب المخاطبات. تحقيق أرثر يوحنا اربرى،دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٤.
٣٠	النووي	أبو زكريا يحيى بن شرف (ت ٦٧١هـ) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
٣١	إخوان الصفا	رسائل أخوان الصفا وخلان الوفاء، في أربعة أجزاء تقديم الدكتور طه حسين، تصحيح خير الدين الزركلي، المطبعة العربية، القاهرة،١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م. - جامعة الجامعة، تحقيق وتقديم عارف تامر، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٠ م

٣٢ إبراهيم (الدكتور زكريا)، دراسات في الفلسفة المعاصرة مكتبة مصر، القاهرة ١٩٦٨ م

٣٣ ابسن (هنريك) بيرحنت، ترجمه د / علي الراعي، مطبعة مصر، القاهرة ١٩٦٤م.

٣٤ أرسطو الحاي والمحسوس، تلخيص ابن رشد، ضمن كتاب في النفس لأرسطو،راجعه وشرحه د/ عبد الرحمن بدوي، النهضة المصرية، ١٩٥٤ م.

٣٥ أوغسطين الاعترافات، نقلها إلى العربية الخوري يوحنا الحلو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٢م.

٣٦ أفلاطون محاورات أفلاطون (فيدون، أوطيفرون، الدفاع، أقريطون) ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٨ م

٣٧ إقبال دكتور محمد (ت١٩٣٩ م) تجديد التفكيرالديني في الإسلام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م

٣٨ امرؤ القيس (ت نحو٥٦٥ م) ديوان امرئ القيس، دار صادر، بيروت، د.ت.

٣٩ أمين أحمد (ت١٩٥٤م) فيض الخاطر جـ ٤، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٤٩ م

٤٠ أمين (الدكتور عثمان ١٩٧٨م) الفلسفة الرواقية،سلسلة أعلام الفلسفة القاهرة ١٩٤٥ م.

٤١ بدوي الدكتور عبد الرحمن (ت ٢٠٠٢م)، خريف الفكر اليوناني ط ٣ النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٩م

– دراسات في الفلسفة الوجودية، ط٣ النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦م

– شوبنهور ط٣ النهضة العربية،القاهرة ١٩٦٥ م.

٤٢ بلدي الدكتور نجيب، مراحل الفكر الأخلاقي، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٢م

٤٣ جبران جبران خليل (ت١٩٣١ م) دمعة وابتسامة، الأجنحة المتكسرة، ضمن الأعمال الكاملة تقديم وإشراف ميخائيل نعيمة دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

٤٤ جيلسون (أتين) تاريخ الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط ط٢ ترجمة وتعليق د/ إمام عبد الفتاح إمام، دار الثقافة، القاهرة ١٩٧٠ م

٤٥ حسين الدكتور طه (ت ١٩٧٣م) ألوان، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠ م.

٤٦ ديورانت (ول) مباهج الفلسفة، ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني الانجلو المصرية ١٩٥٦ م

٤٧ راسل برتراند تاريخ الفلسفة الغربية، جـ٣، ترجمة د/ محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ١٩٧٧ م.

٤٨ زيادة مي (ت١٩٤١ م) ظلمات وأشعة، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٧٥ م.

٤٩ سبوك بنجامين مشكلات الآباء والأمهات، ترجمة د/ محمد علي العريان، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٦٧ م.

٥٠ سكنر تكنولوجيا السلوك الإنساني، ترجمة عبد القادر يوسف، سلسلة عالم المعرفة، رقم٣٢ الكويت، ١٩٨٠ م.

٥١ شورون (جاك) الموت في الفكر الغربي، ترجمة كامل يوسف حسين مراجعة الدكتور أمام عبد الفتاح أمام،سلسلة عالم المعرفة رقم ٧٦ الكويت ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

٥٢ عبد الباقي محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٤ م.

٥٣ عبد الجبار القاضي أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد الأسد بادي (ت ٤١٥هـ) شرح الأصول الخمسة تعليق الأمام أحمد بن

الحسين بن أبي هاشم، حققه الدكتور عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة القاهرة ١٩٦٥ م

٥٤ عبود الدكتور عبد الغني، اليوم الآخر والحياة المعاصرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨ م.

٥٥ عفيفي الدكتورأبو العلا، التعليقات على فصوص الحكم طبعة دار إحياء الكتب العربية،القاهرة ١٣٦٥٠ – ١٩٤٦م.

٥٦ فلوطرخس الأراء الطبيعية، ترجمة قسطا بن لوقا، ضمن كتاب في النفس لأرسطو مراجعة وشرح د/ عبد الرحن بدوي، النهضة المصرية، ١٩٥٤ م.

٥٧ قطب المرحوم الشهيد سيد (ت ١٩٦٦ م) في ظلال القرآن ، ط ٥ دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣٨٦هـ ١٩٦٧
– التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ١٩٧٨.

٥٨ كرم يوسف (ت١٩٥٨ م) تاريخ الفلسفة اليونانية ط٥ النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٦ م.

٥٩ كريسون أندريه، المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، ترجمة د/ عبد الحليم محمود وأبو بكر زكري. الباب الحلبي، القاهرة، ١٩٤٦ م.

٦٠ مدكور الدكتور إبراهيم بيومي (ت١٩٩٥م) في الفلسفة الإسلامية، جزءان دار المعارف،القاهرة، ١٩٧٦ م.

٦١ مطر الدكتورة أميرة حلمي، الفلسفة عن اليونان، النهضة العربية. القاهرة ١٩٧٤ م.

٦٢ معوض الدكتور أحمد أضواء على شوبنهور، ط٢ الدار العربية القاهرة ١٩٦٠ م.

٦٣ موسى الدكتور محمد يوسف تاريخ الأخلاق ط٣، دار الكتاب العربي بمصر ١٣٧٣ – ١٩٥٢ م.

٦٤ نيتشه فردريك (ت ١٩٠٠ م) هكذا تكلم زرادشت، ترجمة فليكس فارس، المكتبة الأهلي، بيروت، ١٩٣٨ م.

كتب للمؤلف

- ابن القيم وآراؤه الكلامية (الماجستير)، ط، الأمل، صنعاء ١٩٩٩ م.
- مشكلة الفيض عند فلاسفة الإسلام (الدكتوراه) ديوان المطبوعات، الجزائر، ١٩٩٣ م.
- وقفة مع الفلسفة الغربية، طبعة المنار، صنعاء، ١٩٩٦ م.
- مشكلة الموت بين الفلاسفة والدين، الطبعة الأولى، طبعة المنار، صنعاء، ١٩٩٦ م. الطبعة الثانية، القاهرة،٢٠٠٢ م.
- أبو الهذيل العلاف وأراؤه الكلامية والفلسفية، مطبعة الأمل، صنعاء، ١٩٩٨ م.
- شهداء الفكر في الإسلام، ط١ دار الهدى الجزائر، ١٩٩٩ م، وطبع الكتاب طبعة ثانية في مطبعة الأمل، صنعاء (١٤٠٠ هـ - ٢٠٠٠ م)
- نشأة علم الكلام وأهدافه مطبعة الأمل، صنعاء، ٢٠٠٠ م.
- المقبلي وآراؤه الكلامية، الطبعة الأولى، مطبعة الأمجاد صنعاء (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م). الطبعة الثانية، مركز الدراسات والبحوث اليمني صنعاء ٢٠٠١ م.
- قراءة في فكر الشيخ مصطفى عبد الرازق، مطبعة الأمجاد صنعاء(١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م).

الأبحاث المنشورة:

- جمال الدين الأفغاني رائد التنوير، مجلة الموافقات العدد الثاني يصدرها المعهد العالي لأصول الدين جامعة الجزائر١٩٩٢ م.
- الحرية الإنسانية عند العلاف، مجلة جرش العدد الأول، الأردن ديسمبر ١٩٩٧م.
- القديس أوغسطين وفلسفته، مجلة كلية الأداب، العدد ٢١، جامعة صنعاء، ١٩٩٨م.

- حياة العلاف ومؤلفاته، مجلة دراسات يمنية، العدد ٥٧، مركز الدراسات والبحوث اليمني صنعاء ١٩٩٩ م.
- منهج للحوار بين اتجاهات الفكر الإسلامي، مجلة منبر الحوار، العدد ٣٩ بيروت، صيف وخريف١٩٩٩ م.
- موقف أبي سليمان السجستاني من علوم عصره مجلة أبحاث اليرموك، مجلد ١٧، العدد الأول، تصدرها جامعة اليرموك مارس ٢٠٠١ م
- علاقة الحكمة بالشريعة عند أبي سليمان السجستاني مجلة أبحاث اليرموك.
- حياة أبي سليمان السجستاني ومنهجه مجلة المنارة، تصدرها جامعة آل البيت الأردن ٢٠٠١ م.
- خلق العالم عند أبي الهذيل العلاف، مجلة البلقاء للبحوث والدراسات،تصدرها جامعة عمان الأهلية، الأردن، المجلد ٨، العدد ٢، تشرين أول ٢٠٠١ م.
- اشترك في موسوعة أعلام فلاسفة العرب بأشراف الدكتور عاطف العراقي وصدرت الموسوعة عن دار (لونجمان)، القاهرة.
- اشترك في موسوعة علماء العرب والمسلمين تصدرها المنظمة العربية للثقافة و التربية و العلوم، تونس.

قيد الطبع:

- الفلسفة الطبيعية عند الامام أحمد بن يحي المرتضى، قيد النشر لدى مركز الدراسات والبحوث اليمني صنعاء.

***